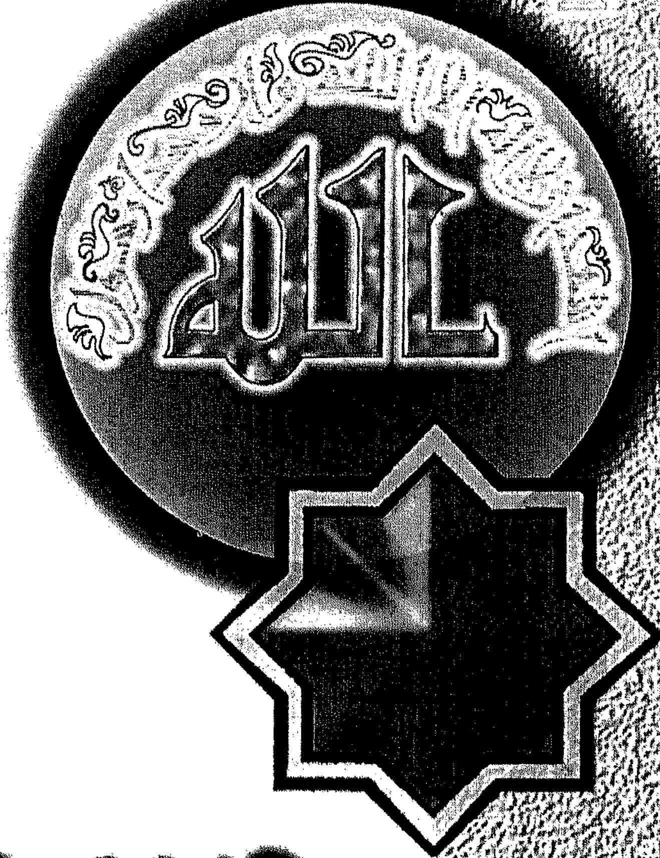


كتاب الشعب

رئيس مجلس الإدارة
ورئيس التحرير
جلال عيسى



حبيب الله

حلمى البلك

١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م

الإخراج الفنى والغلاف

أشرف سعيد

رقم الإيداع ٣٢٧٣/ ٢٠٠٠

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-202-122- X

مؤسسة دار الشعب

للصحافة والطباعة والنشر

٩٢ شارع قصر العينى - القاهرة - تليفون ٣٥٥١٨١٠ - ٣٥٥١٨١٨ فاكس ٣٥٤٤٨١١ - ٥٩٤٣٩٦٦

المقدمة

عزيزى القارئ

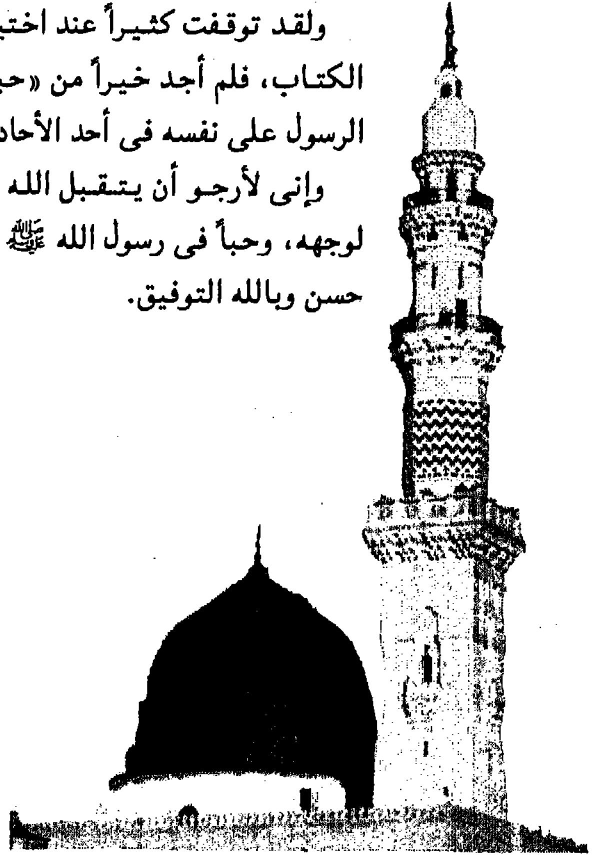
هذا الكتاب الذى بين يديك هو سيرة المصطفى ﷺ ، أضعها بين يديك راجياً أن ينفعك الله بها ، وأن يكتبها فى سجل حسناتى يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وما أحوجنا ونحن نعيش فى هذا العالم المعقد المتشابك أن نتأسى بسيرة الرسول ﷺ ، وأن نجد فى هديه ما يعيننا على أن نسلك الطريق المستقيم، ونمضى على المنهج القويم، الذى رسمه لنا النبى صلوات الله وسلامه عليه.

ولقد توقفت كثيراً عند اختيار العنوان الذى أضعه اسماً لهذا الكتاب، فلم أجد خيراً من «حبيب الله» وهو الوصف الذى أطلقه الرسول على نفسه فى أحد الأحاديث المروية عنه.

وإنى لأرجو أن يتقبل الله عز وجل منى هذا العمل خالصاً لوجهه، وحباً فى رسول الله ﷺ ، كما أرجو أن يتقبله القارئ بقبول حسن وبالله التوفيق.

حلمى البلك







حبيب الله

جلس أناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه، فخرج حتى اذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون، فسمع حديثهم.

- عجباً إن الله عز وجل اتخذ من خلقه إبراهيم خليلاً.
- بماذا أعجب من كلام موسى كلمه ربُّه تكليماً.
- وعيسى كلمة الله وروحه.
- وآدم اصطفاه الله.

خرج رسول الله ﷺ وقال: قد سمعت كلامكم وعجبكم، إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك، وموسى نبى الله وهو كذلك، وعيسى روح الله وكلمته وهو كذلك، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك، ألا وأنا حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من أحرك حلق الجنة فيفتح الله لى فيدخلنيها ومعى فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر.

صح من طرق كثيرة أن رسول الله ﷺ ولد يوم الاثنين لاثنتى عشرة مضت من شهر ربيع الأول عام الفيل فى زمن كسرى أنو شروان ويقول أصحاب التوفيقات التاريخية: إن ذلك يوافق اليوم المكمل للعشرين من شهر أغسطس سنة ٥٧١ بعد ميلاد المسيح عليه السلام وقد ذكر القرآن الكريم فى صراحة قاطعة أن محمداً ﷺ مكتوب فى كتب اليهود والنصارى بأخص أوصافه يجدونه فيها باسمه أحمد ويجدون أصول رسالته ودعائم شريعته..

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الأعراف ١٥٧)

ويقول المولى عز وجل:

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الصف ٦)





تحكى لنا الروايات ذات المصادر الموثوقة كيف حدّث الأحبار والرهبان عن مولد النبى ﷺ وزمان ميلاده وعن بعض خصائصه وصفاته، ومن ذلك ما رواه البيهقى وأبو نعيم عن حسان بن ثابت قوله: إنى لغلام ابن سبع سنين أو ثمان أعْقِلُ ما رأيت وسمعت إذا بيهودى يصرخ ذات غداة: يا معشر يهود فاجتمعوا إليه فقالوا: ويلك، ما لك فقال: لقد طلع نجم أحمد الذى يولد به فى هذه الليلة.

وروى الحافظ أبو نعيم فى دلائل النبوة عن مالك بن سنان: جئت عَبْدَ الأشهل يوماً لأتحدث فيهم ونحن فى هدنة من الحرب، فسمعت يوشع اليهودى يقول: أظل خروج نبى يقال له أحمد، يخرج من الحرم، فقال له خليفة بن ثعلبة الأشهلى كالمستهزئ به: ما صفته؟.. فقال: رجل ليس بالقصير ولا بالطويل، فى عينيه حمرة، ويلبس الشملة، ويركب البعير، سيفه على عاتقه، وهذا البلد مُهاجَره فرجعت إلى قومى وأنا يومئذ أتعجب مما يقول يوشع، فأسمع رجلاً منا يقول: ويوشع يقول هذا وحده؟ كل يهود يثرب يقولون هذا. فخرجت حتى جئت بنى قريظة، فأجد جمعاً يتذاكرون النبى ﷺ، فقال الزبير بن باطا: قد طلع الكوكب الأحمر الذى لم يطلع إلا لخروج نبى أو ظهوره، ولم يبق إلا أحمد وهذا مهاجره

لما وُلِد رسول الله ﷺ، دخل به جَدُّه عبد المطلب الكعبة ودعا له وقال وهو يُعوذه.

الحمد لله الذى أعطانى
هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد فى المهد على الغلمان
أعيذه بالبيت ذى الأركان
أعيذه من كل ذى شَنَآن
من حاسد مضطرب العنان

ولما كان اليوم السابع لميلاد الرسول ﷺ ، ذبح عنه جده عبد المطلب ودعا له قريشاً، فلما أكلوا.. قالوا: يا عبد المطلب ما سميت ابنك؟ فقال: سميته محمداً.. قيل له: كيف سميت باسم ليس لأحد من آبائك وقومك؟.. فقال: إنى لأرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم..

وكان عبد المطلب قد رأى فى منامه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره، لها طرف



فى السماء وطرف فى الأرض، وطرف فى الشرق، وطرف فى الغرب، ثم عادت كأنها شجرة، على كل ورقة منها نور، وإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها وفسرت تلك الرؤيا لعبد المطلب بمولود يكون من صلبه، يتبعه أهل الشرق والغرب، ويحمده أهل السماء والأرض، ولذلك سماه محمداً.

وكان أبو طالب عم النبى ﷺ يقول:

وشق له من اسمه ليُجِلّهُ

فذو العرش محمود وهذا محمدُ

خرج عبد المطلب برسول الله ﷺ من الكعبة إلى أمه، فدفعه إليها، والتمس الرُّضعاء فاسترضع له امرأة من بنى سعد بن بكر يقال لها حليمة ابنة أبى ذُؤيب، وكان زوجها يدعى الحارث بن عبد العزى وقد أسلم الحارث على يدى رسول الله ﷺ إذ قدم الحارث على الرسول بمكة حين أنزل عليه القرآن فقالت له قريش: ألا تسمع يا حارث ما يقول ابنك هذا؟.

ـ قال: وما يقول؟.

ـ قالوا: يزعم أن الله يبعث بعد الموت وأن لله دارين يعذب فيهما من عصاه، ويكرم فيهما من أطاعه ولقد شتت أمرنا وفرّق جماعتنا.

عندئذ ذهب الحارث إلى رسول الله ﷺ وقال: أى بنى.. مالك ولقومك يشكونك، ويزعمون أنك تقول إن الناس يبعثون بعذ الموت ثم يصيرون إلى جنة ونار؟.

فقال له ﷺ : نعم أنا أزعم ذلك ولو قد كان ذلك اليوم يا أبت لقد أخذت بيدك حتى أعرِّفكَ حديثك اليوم.

وهنا أسلم الحارث وحسن إسلامه بعد ذلك وكان يقول حين أسلم: لو قد أخذ ابنى بيدى فعرّفنى ما قال لم يرسلنى إن شاء الله حتى يدخلنى الجنة.

تحكى حليمة قصة إرضاعها لرسول الله ﷺ وما رأته من الخير بسبب ذلك فتقول: فى سنة شهباء، لم تبق لنا شيئاً ومعنا شارف لا تبض بقطرة، وصبى لا ننام من بكائه، ما فى ثديى ولا فى شارفنا ما يغنيه من لبن، فلما قدمنا مكة لم تبق منا امرأة إلا عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه، وإنما كنا نرجو كرامة رضاعة من والد المولود، وكان يتيماً، وكنا نقول: ما عسى أن تصنع أمه.



حتى لم يبق من صواحبى امرأة إلا أخذت صبياً غيرى، وكرهت أن أرجع ولم آخذ شيئاً فقلت لزوجى: والله لأرجعن إلى ذلك المولود فلأخذنه فأتيته فأخذته، فرجعت إلى رحلى.. فقال زوجى: قد أخذتيه؟ أصبت، فعسى الله أن يجعل فيه خيراً. فوالله ما هو إلا أن جعلته فى حجرى، فأقبل عليه ثديى بما شاء الله من اللبن فشرب حتى روى وقام زوجى إلى شارفنا من الليل فإذا هى حافل، فحلب لنا ما شئنا فشرب وشربت حتى روينا، فبتنا ليلتنا تلك بخير شباعاً رُواة ونام صبياننا فيقول زوجى: والله يا حليمة ما أراك إلا قد أصبت نسمة مباركة.

وتمضى حليمة تحكى قصة شق صدر رسول الله ﷺ فتقول: بينما هو يلعب وأخوه يومًا خلف البيوت يرعيان بُهْماً لنا إذ جاءنا أخوه يشتد فقال: أُدركى أخى القرشى قد جاء رجلان فأضجعاه فشقا بطنه.

فخرجنا نحوه نشتد فانتهينا إليه وهو قائم منتقع لونه، فاعتنقه أبوه واعتنقته ثم قلنا: مالك أى بنى؟ فقال عليه الصلاة والسلام: أتانى رجلان عليهما ثياب بيضاء فأضجعانى، ثم شقا بطنى فوالله ما أدرى ما صنعا.

فاحتملناه فرجعنا به فيقول أبوه: والله يا حليمة ما أرى هذا الغلام إلا قد أصيب، فانطلقى فلنرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما يتخوف عليه.

فرجعنا به إليها فقالت: ما ردكما به وقد كنتما حريصين عليه؟ فقلت: لا والله إنا كفلناه وأدينا الحق الذى يجب علينا فيه، ثم تخوفت الأحداث عليه فقلنا يكون فى أمه، فقالت أمه: والله ماذا بكما فأخبرانى خبركما وخبره، فوالله ما زالت بنا حتى أخبرناها خبره فقالت: والله إن لابنى هذا لشأناً ألا أخبركما عنه؟ إنى حملت به فلم أر حملاً كان أخف ولا أعظم بركة منه ثم رأيت نوراً كأنه شهاب خرج منى حين وضعته أضاءت لى أعناق الإبل ببصرى ثم وضعته فما وقع كما يقع الصبيان وقع واضعاً يديه على الأرض رافعاً رأسه إلى السماء، دعاه والحقا بشأنكما.

ولم تر حليمة رسول الله ﷺ بعد ذلك إلا مرتين إحداهما بعد تزوجه خديجة رضى الله عنها حيث جاءته تشكو إليه من أن قومها قد أجدبوا فكلم لها خديجة فأعطتها عشرين رأساً من الغنم والمرة الثانية يوم حنين، حين قام إليها الرسول ﷺ وبسط لها رداءه فجلست عليه.





ولما بلغ رسول الله ﷺ ست سنين خرجت به أمه إلى أخواله بنى عدى ابن النجار بالمدينة تزورهم به، ومعه أم أيمن تحضنه، وهم على بعيرين، فنزلت به فى دار النابغة فأقامت به عندهم شهراً ثم رجعت به أمه إلى مكة، فلما كانوا بالأبواء توفيت أمه آمنة بنت وهب، ودفنت هناك ثم رجعت به أم أيمن على البعيرين اللذين قدموا عليهما وكانت تحتضنه مع أمه ثم بعد أن ماتت وكانت أم أيمن دايته وحاضنته بعد موت أمه، وكان عليه الصلاة والسلام يقول لها: أنت أمى بعد موت أمى.

وتروى أم أيمن سبب رجوع آمنة بابنها محمد من المدينة فتقول: جاءنى ذات يوم رجلان من يهود المدينة فقالا لى: أخرجى إلينا أحمد ننظر إليه فنظرا إليه وقلباه، فقال أحدهما لصاحبه: هذا نبي هذه الأمة وهذه دار هجرته وسيكون بها من القتل والسبى أمر عظيم فلما سمعت أمه خافت وانصرفت به، فماتت بالأبواء وهى راجعة.

لما توفيت أم رسول الله ﷺ قبضه إليه جده عبد المطلب وضمه ورقّ عليه رقة لم يرقها على ولده وكان يقربه منه ويدنيه، ويدخل عليه إذا خلا وإذا نام وكان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة وكان بنوه يجلسون حول فراشه حتى يخرج إليه ولا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له وكان رسول الله ﷺ يأتى وهو غلام حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: «دعوا ابنى فوالله إن له لشأناً». ثم يمسح عبد المطلب على ظهر محمد ويجلسه على فراشه مسروراً بما يراه يصنع، وكان عبد المطلب يقول لأم أيمن حاضنة الرسول: «يا بركة لا تغفلى عن ابنى، فإنى وجدته مع غلمان قريباً من السدرة، وإن أهل الكتاب يزعمون أن ابنى نبى هذه الأمة»، وكان عبد المطلب لا يأكل طعاماً إلا يقول علىّ بابنى. عندئذ يأتى به إليه.

ولما حضرت عبد المطلب الوفاة أوصى أبا طالب بحفظ رسول الله ﷺ وحياطته، فلما بلغ رسول الله ﷺ ثمان سنين مات عبد المطلب ودفن بالحجون وفى ذلك تقول أم أيمن حاضنة الرسول: «رأيت رسول الله ﷺ يومئذ يبكى خلف سرير عبد المطلب».

كان رسول الله ﷺ بعد جده عبد المطلب مع عمه أبى طالب لوصية عبد المطلب له به، ولأنه كان شقيق أبيه عبد الله، أمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم وكان أبو طالب لا مال له، وكان يحب رسول الله حباً شديداً لا يحبه ولده، وكان لا ينام إلا إلى جنبه، ويخرج فيخرج معه وكان أبو طالب يخصه بالطعام، وكان إذا أكل عيال





أبى طالب جميعاً أو فرادى لم يشبعوا، وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا، فكان أبو طالب يقول له إنك لمبارك.

ولما بلغ رسول الله ﷺ من العمر اثنتى عشرة سنة، خرج أبو طالب فى ركب تاجراً إلى الشام فلما تهيأ للرحيل وأجمع السير، صب به رسول الله ﷺ فَرَقٌ له أبو طالب وقال: «والله لأخرجن به معى ولا يفارقنى، ولا أفارقه أبداً».

وخرج محمد مع عمه أبى طالب إلى الشام فى أشياخ من قريش فلما أشرفوا على الراهب بحيرا هبطوا فحلوا رحالهم، فخرج إليهم الراهب وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج ولا يلتفت إليهم فجاء الراهب وهم يحلون رحالهم فسار يتخللهم حتى جاء فأخذ بيد النبى ﷺ وقال «هذا سيد العالمين هذا رسول رب العالمين يبعثه الله رحمة للعالمين» فقال له أشياخ قريش «ما علمك بهذا؟». قال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجداً، ولا يسجدان إلا لنبى، وإنى أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة ووضع الراهب لهم طعاماً، وناشدهم ألا يذهبوا به إلى الروم فإنهم إذا رأوه عرفوه بالصفة فيقتلونه وقال لهم. «أنشدكم الله أيكم وليهُ؟».

فقالوا له: أبو طالب. فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب، وزوده الراهب من الكعك والزيت.

شب رسول الله ﷺ يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية ومعايبها لما يريد به من كرامته ورسالته، حتى بلغ أنه كان رجلاً أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقاً وأكرمهم حسباً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً وأعظمهم أمانة وأبعدهم من الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال تنزهاً وتكرماً، ما رؤى مُلاحياً ولا ممارياً أحداً، حتى ما اسمه فى قومه إلا الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة.

حج أكثم بن صيفى حكيم العرب والنبى ﷺ فى سن الحُلُم، فرآه أكثم فقال لأبى طالب: ما أسرع ما شب أخوك.

أبو طالب: ليس بأخى ولكنه ابن أخى عبد الله.

أكثم: أهو ابن الذبيحين؟

قال أبو طالب: نعم.

فجعل أكثم يتوسم النبى ﷺ ثم قال لأبى طالب: ما تظنون به؟





قال أبو طالب: نحسن به الظن وإنه لوفيٌّ سخي.

قال أكثم: هل غير هذا ؟

قال أبو طالب: نعم إنه لذو شدة ولين ومجلس ركين وفضل متين.

سأل أكثم: فهل غير هذا ؟

قال أبو طالب: إنا لنتيمن بمشهده ونَتَعَرّفُ البركة فيما لمسه بيده.

قال أكثم: أقول غير هذا.. إنه ليضرب العرب قامطة، بيد حائطة ورجْل لائطة، ثم ينعق بهم إلى مرتع مريع، وورد سريع، فمن اخرورط إليه هداه، ومن احرورف عنه أرداه.

عن على رضى الله تعالى عنه قال: قيل للنبى ﷺ: هل عبدت وثناً قط؟ قال: لا قالوا: فهل شربت خمراً قط؟ قال: لا، وما زلت أعرف أن الذى هم عليه كُفْرٌ، وما كنت أدرى ما الكتاب ولا الإيمان.

وعن أم أيمن رضى الله تعالى عنها قالت: كان بوانة صنماً تحضره قريش يوماً فى السنة، فكان أبو طالب يحضره مع قومه، وكان يكلم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك معه فيأبى، حتى رأيت أبا طالب غضب عليه، ورأيت عماته غضبن عليه وقلن له: يا محمد ما تريد أن تحضر لقومك عيداً ولا تكثر لهم جمعاً.

فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب ما شاء الله ثم رجع مرعوباً فزعاً فقالت عماته: ما دهاك؟

فقال: إنى أخشى أن يكون بى لمم.

فقلن له: ما كان الله يبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك، فما الذى رأيت؟

فقال ﷺ: رأيت أنى كلما دنوت من صنم منها تمثّل لى رجل أبيض طويل يصيح بى وراءك يا محمد، لا تمسه.

وتكمل أم أيمن الحديث فتقول: فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ (أى أصبح نبياً).

حفظ الله تعالى رسوله ﷺ فى شبابه من نزعات الشباب ودواعيه البريئة التى تنزع إلى الشبوبية بطبعها ولكن لا تلائم وقار الهداة وجلال المرشدين وكان ﷺ مع تساميه عن دنس الجاهلية ومعايبها يشارك قومه فى أعمال الخير والمكرمات، وكان كلما تقدمت به سِنُّه واقترب من كمال الرجولة ورأى ما عليه قومه من ضلالة الوثنية زاد انطواء على نفسه وفر من المجتمعات إلى الانفراد والعزلة كراهة لحياتهم وفراراً من أقذارهم





وسقطاتهم يقول ابن كثير: كان رسول الله ﷺ يحب الخلاء والانفراد عن قومه لما يراه عليهم من الضلال المبين من عبادة الأوثان والسجود للأصنام، وقويت محبته للخلوة عند مقاربة إيحاء الله إليه صلوات الله وسلامه عليه.

ويقول ابن إسحق: كان رسول الله ﷺ يخرج إلى حراء فى كل عام شهراً من السنة يتنسك فيه وهكذا كانت نشأة محمد ﷺ منذ أن ولدته أمه إلى أن بعثه الله رحمة للعالمين، أكمل نشأة، تولاه الله تعالى فأدبه، ورباه فكمله ورعاه فحفظه مما كان يغمر حياة قومه من وثنية وعادات مسترزلة، حتى غدا أكمل إنسان، لم يستطع أحد أن يريبه فى حياته أو يصم شبابه بغميزة أو ريبة على كثرة الخصوم والأعداء والمتربصين فضلاً من الله ونعمة والله ذو الفضل العظيم..

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ما بعث الله نبياً إلا راعى غنم، فقال له أصحابه: وأنت يارسول الله؟ قال: وأنا، رعيْتُها لأهل مكة بالقراريط.

وعنه ﷺ أنه قال: بُعث موسى وهو راعى غنم، وبُعث داود وهو راعى غنم، وبُعِثتُ وأنا راعى غنم لأهلى بأجياد.

ولو أننا تساءلنا: ما الحكمة فى إلهام الأنبياء من رعى الغنم قبل النبوة نجد الحافظ يقول: الحكمة فى إلهام الأنبياء من رعى الغنم قبل النبوة أن يحل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم، ولأن فى مخالطتهم ما يُحَصِّلُ لهم الحلم والشفقة، لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها فى المرعى ونقلها من مسرح إلى مسرح ودفع عدوها من سَبْعٍ وغيره كالسارق، وعَلموا اختلاف طباعها وشدة تفرقها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة، ألفوا من ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها، ورفقوا بضعيفها فجبروا كسرَها وأحسنوا التعاهد لها، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كُلِّفوا القيام بذلك من أول وهلة لما تَحصّل لهم من التدرج على ذلك يرعى الغنم، وخصت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها ولأن تفرقها أكثر من تفرق الإبل أو البقر لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها فى العادة المألوفة، ومع أكثرية تفرقها فهى أسرع انقياداً من غيرها، وفى ذكْر النبى ﷺ لذلك بعد أن عَلِم كونه أكرم الخلق على الله، ما كان عليه من عظيم التواضع لربه، والتصريح بمنته عليه وعلى إخوانه من الأنبياء ﷺ وعليهم أجمعين.





لما بلغ رسول الله ﷺ من العمر خمساً وعشرين سنة، وليس له بمكة اسمٌ إلا الأمين لما تكامل فيه من خصال الخير قال له عمه أبو طالب: يا ابن أخي، أنا رجل لا مال لى، وقد اشتد الزمان علينا، وألحت علينا سنون مُنكَرة، وليست لنا مادةٌ ولا تجارة، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام وأخاف عليك بنى يهود ولكن لا نجد من ذلك بداً. وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك فى عير لها فيتجرون لها فى مالها فيصيبون منافع، فلو جئتها وعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك وفضلتك على غيرك، لما بلغها عنك من طهارتك، وإن كنت أكره أن تأتى الشام، وأخاف عليك من يهود عندئذ قال رسول الله ﷺ لعمه أبى طالب: لعلها ترسل إلىّ فى ذلك. فرد عليه عمه: إنى أخاف أن تُوَلّىَ غَيركَ.

ولما بلغ خديجة ما كان من محاورة عم محمد له، وكان قبل ذلك قد بلغها صدْقُ حديثه وعَظِيمُ أمانته، وكرم أخلاقه، قالت خديجة: ما عَلِمْتُ أنه يريد ذلك، ثم أرسلت إليه، فقالت: إنه دعانى إلى البعث إليك ما بلغنى من صدِق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلاً من قومك، ففعل رسول الله ﷺ، ثم لقى عمه أبا طالب فذكر له ذلك، فقال له عمه: إن هذا لرزق ساقه الله إليك.

خرج رسول الله ﷺ مع ميسرة غلام خديجة فى تجارة لها قاصداً الشام، وقالت خديجة لميسرة: لا تعص له أمراً ولا تخالف له رأياً. وجعل عمومته يوصون به أهل العير. حتى قدم الشام فنزلا فى سوق بُصْرىَ فى ظل شجرة قريباً من صومعةٍ راهب يقال له (نَسْطُورا)، فنظر الراهب إلى ميسرة وكان يعرفه فقال: يا ميسرة من هذا الذى نزل تحت هذه الشجرة؟

قال ميسرة: رجل من قريش من أهل الحرم.

فقال الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قَطُّ إلا نبى، أفى عينيه حُمرة؟

قال ميسرة: نعم لا تفارقه.

فقال الراهب: هو هو، وهو آخر الأنبياء ويا ليت أنى أدركه حين يؤمر بالخروج ثم دنا الراهب إلى النبى ﷺ سراً من ميسرة وقَبّل رأسه وقدميه وقال له: آمنت بك، وأنا أشهد أنك الذى ذكره الله فى التوراة، يا محمد قد عرفت فيك العلامات كلها خلا خصلة واحدة فأوضح لى عن كتفك. فأوضح له محمد فإذا هو بخاتم النبوة فأقبل عليه يُقبِّله





ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله النبى الأمى الذى بشر بك عيسى بن مريم فإنه قال: لا ينزل بعدى تحت هذه الشجرة إلا النبى الأمى الهاشمى العربى المكى، صاحب الحوض والشفاعة، وصاحب لواء الحمد.

حضر رسول الله ﷺ سوق بُصْرىَ فباع سلعته التى خرج بها واشترى، فكان بينه وبين رجل اختلاف فى سلعة فقال الرجل: احلف باللات والعُزّى.

فقال رسول الله ﷺ: ما حلفت بهما قط.

فقال الرجل: القَوْل قولك.

ثم خلا الرجل إلى ميسرة وقال له: يا ميسرة هذا نبى هذه الأمة، والذى نفسى بيده إنه لهو، تجده أحبارنا منعوتاً فى كتبهم.

ثم انصرف أهل العير جميعاً، وكان ميسرة يرى رسول الله ﷺ إذا كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو على بعيره، وكان الله تعالى قد ألقى على رسول الله ﷺ المحبة من ميسرة، فكأنه عَبْدٌ لرسول الله ﷺ. وكان رسول الله ﷺ وميسرة قد باعا متاعهما وربحا ربحاً لم يربحوا مثله قط فقال له ميسرة: يا محمد اتجرنا لخديجة أربعين سنة ما رأيت ربحاً قط أكثر من هذا الربح على وجهك!!

ولما عاد رسول الله ﷺ ورأت خديجة أن تجارتها قد ربحت، أضعفت له ما سَمّت، وكانت قد ذكرت لورقة بن نوفل وكان ابنَ عَمِّها وكان نصرانياً قد تتبع الكتب وعَلِم من علْم الناس، ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الرّاهب، وما كان يُرى منه إذ كان المَلَكان يُظلانه.

قال ورقة: يا خديجة إن محمداً لنبىٌّ هذه الأمة، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبى يُنْتَظر، هذا زمانه.

بعد ما لمسته خديجة من محمد وما سمعته من ميسرة ومن ورقة بن نوفل عرضت نفسها على النبى ﷺ، وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة، وهى يومئذ أوسط قريش نسباً وأعظمهم شرفاً وأكثرهم مالاً. وقد أرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها وحضر رسول الله ﷺ ومعه عمه أبو طالب الذى خطب يومئذ فقال: الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم، وزَرْع إسماعيل، وضئضئ معْد وعنصر مُضَر، وجعلنا حَضَنَة بيته، وسواس حرمه، وجَعَل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً، وجَعَلنا حُكّام الناس، ثم إن ابن





أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا ترجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً، وإن كان في المال قلاً فإن المال ظِلٌّ زائل وأمر حائل وعارية مسترجعة، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل، وقد خطب إليكم رغبة في كريمتكم خديجة، وقد بذل لها من الصداق حكمكم عاجله وآجله، اثنتا عشرة أوقية (ونشاً) أي ونصف.

فقال ورقة بن نوفل وكان حاضراً: الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرْت، وفضلنا على ما عَددْت، فنحن سادة العرب وقادتُها، وأنتم أهل ذلك كله، لا تنكر العشيرة فضلكم ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم، وقد رغبنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم، فاشهدوا عليّ معاشر قريش بأني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله.

وسكت ورقة بن نوفل، فقال أبو طالب: قد أحببت أن يُشركها عَمُّها.

فقال عمرو بن أسد: اشهدوا عليّ يا معشر قريش أني قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد.

فرحت خديجة بزواجها فرحاً شديداً، ورُوى أن رسول الله ﷺ لما تزوجها ذهب ليخرج فقالت له: إلى أين يا محمد، اذهب وانحر جزوراً أو جزورين وأطعم الناس، ففعل. وأمرت خديجة جواريها أن يرقصن ويضربن بالدفوف، وقالت لزوجها: مُرْ عَمَّك ينحر بَكْراً من بكراتك، وأطعم الناس، وهلم فقم مع أهلك وأطعم الناس: وقد فرح عمه أبو طالب فرحاً شديداً وقال: الحمد لله الذي أذهب عنا الكرب ودفع عنا الهموم.

وظل رسول الله ﷺ يتجر في مال زوجه خديجة، ويقى طوال المدة التي تقع بين زواجه وبعثته يتسبب لمعاشه بالتجارة، ويباشرها بنفسه في الأسواق الداخلية، ويؤجر عليها أهل المعرفة في الرحلات الخارجية إلى اليمن أو الشام.

إعادة بناء الكعبة

كانت الكعبة قبل أن يَعْمُرَ ما حولها بالبنيان عُرْضة لجوارف السيل، فخافت قريش على البيت أن تهدمه السيول، فأقامت ردماً من حوله، لكن السيول كانت تأتي من فوق هذا الردم حتى كادت تزيله، وكانت تعلوه حتى تدخل البيت، فتصدع وخافوا أن ينهدم، فاجتمعت قريش واتفقت على بنائه.

ولما تم هدم البناء القديم مع الإبقاء على القواعد، جمعت القبائل من قريش الحجارة





لبناء الكعبة، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن فاجتمعوا فيه كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى كاد الأمر يصل بينهم إلى حد القتال، ثم إنهم اجتمعوا بعد ذلك للتشاور فى الأمر، وكان حاضراً أبو أمية بن المغيرة وكان أسنَّ قريش كلها فقال لهم: يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم.

فكان أول داخل رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضيناه، هذا محمد.

فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال ﷺ: هَلُمّ إلىّ ثوباً.

فأتى به فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً. ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه فوضعه بيده ثم بنى عليه.

كان العالم قبل بعثة النبى ﷺ فى حيرة شاملة واضطراب شمل جميع نواحيه، وسيطرت الفوضى على كل شىء فيه، وكان الأمر كذلك فى الجزيرة العربية. الضعيف يخضع لنداء القوى. فلا عدل يوقف الجائرين عند حد ويقتص للضعيف من القوى، ولا إنصاف يضع حداً للمظالم والطغيان.

وفى أمور العبادة اتخذت قريش صنماً على بئر فى جوف الكعبة يقال له هُبَل، واتخذوا (إسافاً) و (نائلة) على موضع زمزم ينحرون عندهما، واتخذ أهل كل دار فى دارهم صنماً يعبدونه من دون الله، فإذا أراد الرجل منهم سفراً تمسح به حين يركب فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره، فإذا قدم من سفره تمسح به فكان أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله.

ومع ذلك فقد كان هناك من يرفض عَقْلهُ عبادة الأصنام، وأخذ يتلمس وجه الحق، مثل ذلك ما روته أسماء بنت أبى بكر إذ قالت: رأيت زيد بن عمرو شيخاً كبيراً مسنداً ظهره إلى الكعبة وهو يقول: يا معشر قريش، والذى نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى. اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به ولكنى لا أعلمه.

وكان زيد بن عمرو يحى الموؤودة، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها أنا أكفيك مؤونتها فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤونتها.





وروى أن زيد بن عمرو خرج يطلب دين إبراهيم ﷺ ويسأل الرهبان حتى بلغ الموصل والجزيرة كلها، ثم أقبل إلى الشام حتى انتهى إلى راهب كان ينتهى إليه علم النصرانية فسأله عن الحنيفية دين إبراهيم، فقال الراهب: إنك لتطلب ديناً ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم، ولكن قد أظلك زمان نبى يخرج من بلادك التى خرجت منها يُبعث بدين إبراهيم الحنيفية، فالحق أنه مبعوث الآن فهذا زمانه فانطلق زيد وهو يقول:

اللهم اشهد أنى على دين إبراهيم.

لبيك حقاً حقاً، تعبداً ورقاً.

ولزيد بن عمرو عدة قصائد فى التوحيد منها قوله:

أرَباً واحداً أم ألف رَبٍّ
أدين، إذاً تقسمت الأمور
عَزَلتُ اللاتَ والعُزى جميعاً
كذلك يفعل الجَلْدُ الصَّبورُ
فلا عُزَى أدينُ ولا ابنتيها
ولا صنمى بنى عمرو أزور
عَجِبْتُ وفى الليل مُعْجِبَات
وفى الأيام يعرفها البصير
بأن الله قد أفْنى رجالاً
كثيراً كان شأنهم الفجور
وأبقى آخرين ببر قوم
فَيربُلُ منهم الطفل الصغير
وبَيْنا المرء يَعثِرُ ثاب يوماً
كما يتروح الغُصْن النضير
ولكن أعبد الرحمَن ربِّى
ليغفر ذنبى الرَّبُّ الغفورُ





على أن زيد بن عمرو مات قبل بعثة النبى ﷺ فلما سئل عنه النبى ﷺ قال: إنه يُبْعَث يوم القيامة أمة وحده.

كان من بين الذى بشّروا بمبعث النبى ﷺ وحث الناس على اتباعه قبل البعثة قُسٌّ بن ساعدة. وقد رُوِى أن وفد إياد لما قَدموا على النبى ﷺ وأسلموا، سألهم رسول الله ﷺ عن قس بن ساعدة فقالوا: يارسولَ الله مات، فقال: كأنى أنظر إليه فى سوق عكاظ على جَمَلٍ أحمر أورق وهو يقول كلاماً ما أرانى أحفظه.

فقال بعض القوم: نحن نحفظه يا رسول الله

فقال عليه الصلاة والسلام: هاتوا..

فقال قائلهم: قال أيها الناس اسمعوا وعوا وإذا وعيتم فانتفعوا، إنه من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، مطر ونبات، وأرزاق وأقوات، وآباء وأمهات، وأحياء وأموات، جميع وأشتات، وآيات بعد آيات، إن فى السماء لخبراً وإن فى الأرض لعبراً، ليلٌ داج، وسماء ذات فجاج، وبحار ذات أمواج. ما لى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تُركوا هناك فناموا، أقسم قُسٌّ قسماً حقاً لا حانثاً فيه ولا آثماً، إن لله ديناً هو أحب إليه من دينكم الذى أنتم عليه، ونبياً خاتماً حان حينه، وأظلكم أوانه، وأدرككم إبانُه، فطوبى لمن آمن به فهداه، وويل لمن خالفه وعصاه.

تباً لأرباب الغفلة من الأمم الخالية، والقرون الماضية يا معشر إياد، أين الآباء والأجداد، وأين المريض والعواد، وأين الفراعنة الشداد، أين من بنى وشيد، وزخرف ونَجَّد، وغرّه المال والولد، أين من بغى وطغى، وجمع فأوعى، وقال: أنا ربُّكم الأعلى، ألم يكونوا أكثر منكم أموالاً وأولاداً؟، وأبعد منكم آمالاً، وأطول منكم آجالاً؟. طحنهم الثرى بكلكله، ومزقهم الدهر بتطاوله، فتلك عظامهم بالية، وبيوتهم خالية. عمرتها الذئاب العاوية. كلا بل هو الله الواحد المعبود، ليس بوالد ولا مولود.

ثم قال النبى ﷺ لوفد إياد: فأيكم يروى شعْره؟ فأنشد أحدهم يقول:

فى الذاهبين الأولين من
القرون لنا بصائر
لما رأيت موارد للموت
ليس لها مصادر





ورأيت قـــومى نحـــوها
تمضى الأصـاغـر والأكـابر
لا يـرجـع المـاضـى إلـىّ
ولا من البـاقين غـابر
أيقنتُ أنى لا مـحـالة
حـيث صـار القـومُ صائر

ومما يروى عن قُس بن ساعدة أنه كان يخطب قومه فى سوق عكاظ فقال وهو يشير بيده إلى نحو مكة ويقول: سَيَعُمكُم حَقٌّ من هذا الوجه فقالوا له: ما هذا الحق؟ فقال: رَجُل أبْلَجُ أحْورُ من وَلَدِ لؤى بن غالب يدعوكم إلى كلمة الإخلاص وعيش الأبد ونعيم لا ينفد، فإن دعاكم فأجيبوه، ولو علمت أنى أعيش إلى مبعثه لكنت أول من سعى إليه.

وقد قيل: إن قُس بن ساعدة عاش ثلاثمائة وثلاثين سنة، وهو أول من آمن بالبعثة من أهل الجاهلية، وأول من اتكأ على عصا فى الخطبة، وأول من قال أما بعد، وأول من كتب من فُلان إلى فلان.

يروى أن أبا ثور عمرو بن مَعْدى كرَب قال: والله لقد علمت أن محمداً رسول الله قبل أن يُبعث..

فقيل له: وكيف ذاك؟.

قال: فزعنا إلى كاهن لنا فى أمر نزل بنا، فقال الكاهن: أقسم بالسماء ذات الأبراج، والأرض ذات الأدراج، والريح ذات العجاج، إن هذا لإمراج ولِقاح ذو نتاج. قال عمرو: وما نتاجه؟

فأجاب الكاهن: ظهور نبى صادق، بكتاب ناطق، وحسام ذالق.

قال عمرو: أين يظهر وإلام يدعو؟

قال الكاهن: يظهر بصلاح ويدعو إلى فلاح، ويعطلُ الأقداح، وينهى عن الراَح والسِّفاح، وعن كل أمرٍ قباح.

قال عمرو: ممن هو؟

أجاب الكاهن: من ولد الشيخ الأكرم، حافر زمزم، ومطعم الطير المحوّم، والسِّباع الضّرم.

قال: وما اسمه؟





قال الكاهن: محمد، وعزُّه سَرمَد وخَصمه مُكمَّد

بعثة النبى ﷺ

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: أنزل عليه ﷺ وهو ابن أربعين فمكث ثلاث عشرة، ثم أمر بالهجرة،فهاجر إلى المدينة فمكث بها عشر سنين وعن أبى قتادة، أن رسول الله ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين فقال: ذاك يوم وُلدت فيه وأنزل علىّ فيه.

وقال ابن كثير: إنه بُعث ﷺ فى شهر رمضان لقوله تعالى:

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾

فقد كان المولى سبحانه وتعالى يعد محمداً خلال فترة ما قبل البعثة إلى تلك المهمة الجليلة، على أن نزول الوحى على محمد لم يأت بغير مقدمات.

ففى حديث للسيدة عائشة تقول رضى الله عنها: أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

روى عن الزّهرى قال: بلغنا أن أول ما رأى رسول الله ﷺ أن الله تعالى أراه رؤيا فشق ذلك عليه فذكرها لخديجة.

فماذا قالت له خديجة؟

قالت له: أبشر فإن الله لن يصنع بك إلا الخير

وذات مرة قال لها رسول الله ﷺ: يا خديجة إنى أرى ضوءاً وأسمع صوتاً، لقد خشيت أن أكون كاهناً، فقالت له: إن الله تعالى لا يفعل ذلك بك، إنك تصدق الحديث، وتؤدى الأمانة، وتصل الرحم.

بعض الروايات تذكر أن رسول الله ﷺ حين أراد الله كرامته وابتدأه بالنبوة كان إذا خرج لحاجته أبعدَ حتى لا يرى بيتاً ويُفضى إلى الشعاب وبطون الأودية فلا يمر بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله فكان رسول الله ﷺ يلتفت عن يمينه وشماله فلا يرى أحداً.

وورد فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: إنى لأعرف حجراً كان يسلم علىّ قبل أن أبعث، إنى لأعرفه الآن ويحكى رسول الله ﷺ كيف كان نزول الوحى عليه فى أول مرة فيقول: إنى إذا خلوت وحدى أرى ضوءاً وأسمع نداءً، يا محمد أنا جبريل وقد والله خشيت أن يكون هذا أمراً. فقالت خديجة: معاذ الله ما كان الله ليفعل ذلك بك إنك





لتؤدى الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث، فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثه له وقالت: اذهب مع محمد إلى ورقة بن نوفل فيذكر له ما يسمع.

قال له رسول الله ﷺ: إذا خلوت وحدى سمعت نداءً خلفى، يا محمد أنا جبريل فأنطلق هارباً، فقال له ورقة: سبوح، وما لجبريل يذكر فى هذه الأرض التى يعبد فيها الأوثان، جبريل أمين الله تعالى على وحيه بينه وبين رسله، لا تفعل إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول ثم ائتنى فخبرنى.

ولكن كيف تصرف الرسول ﷺ عندما اتصل به جبريل بعد ذلك؟ خرج رسول الله ﷺ ذات ليلة فسمع السلام عليكم فظنها الرسول ﷺ فجأة الجن، فجاء مسرعاً حتى دخل على خديجة، فقالت له: ما شأنك فأخبرها، فقالت: أبشر فإن السلام خير.

ولكن ماذا حدث فى المرة التالية؟

يقول رسول الله ﷺ بعد أن خرج مرة أخرى إلى حراء: فخرجت حتى إذا كنت فى وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، فرفعت رأسى إلى السماء أنظر فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء فرفعت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفاً وما أتقدم وما أتأخر ورائى حتى بعثت خديجة برُسُلها فى طلبى فبلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى ثم انصرفت راجعاً إلى أهلى حتى أتيت خديجة فجلست إليها فقالت: ياأبا القاسم أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك فبلغوا مكة ورجعوا إلى. ثم حدثتها بالذى رأيت فقالت: أبشر يا ابن العم واثبت، فوالذى نفسى بيده إنى أرجو أن تكون نبى هذه الأمة ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ثم انطلقت إلى ورقة فأخبرته بما أخبرتها به فقال ورقة: قدوس قدوس! والذى نفسى بيده لئن كنت صدقتينى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى، وإنه لنبى هذه الأمة فقولى له فليثبت.

بعد أن سمعت خديجة من ورقة بن نوفل من أن محمداً هو نبى هذه الأمة ماذا فعلت خديجة؟

رجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بقول ورقة، انصرف رسول الله ﷺ قاصداً حراء للتعبد، وكان من عادته أن يطوف بالكعبة قبل أن يذهب إلى حراء، فبدأ بالكعبة





وطاف، فلقيه ورقة بن نوفل فبادره بقوله: يا ابن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت، فأخبره فقال له ورقة: والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ولتكذبن ولتقاتلن ولتؤذين ولئن أدركت ذلك لأنصرن الله نصراً يعلمه ثم أدنى ورقة رأس محمد منه وقبله.

كيف بدأ نزولُ القرآن على محمد؟

يقول البراء بن عازب رضى الله تعالى عنه: عرض جبريل للنبى ﷺ ليلة السبت وليلة الأحد، ثم أتاه بالرسالة ليلة الاثنين وهو فى غار حراء وبشره جبريل برسالة ربه حتى اطمأن النبى ﷺ فقال له جبريل: اقرأ فقال: ما أنا بقارئ فَغَطهُ حتى بلغ منه الجَهْد ثم أرسله فقال له: اقرأ فقال: ما أنا بقارئ فغطه حتى بلغ منه الجَهْد ثم أرسله فقال له: اقرأ قال: ما أنا بقارئ فغطه حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله فقال: اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم.

ولكن هل ظل جبريل يُملِي عليه بقية آيات هذه السورة التى تقول كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى إن إلى ربك الرجعى إلى آخر آيات هذه السورة الكريمة؟ الذى نزل أولاً على رسول الله ﷺ هو قوله تعالى من أول اقرأ، حتى قوله تعالى (علم الإنسان ما لم يعلم)، أما بقية السورة فقد نزل بعد ذلك.

وماذا فعل الرسول وكيف كان حاله؟

رجع رسول الله ﷺ إلى أهله ترجف بوادره لا يلقاه حجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله، فرجع إلى بيته وقد أيقن أنه فاز فوزاً عظيماً فدخل على خديجة وقال: زملونى، زملونى فزملوه، حتى ذهب عنه الروْع، فقال لها: أرأيت الذى كنت أخبرتك أنى رأيته فى المنام؟

إنه جبريل اسْتَعْلَنَ لى، أرسله إلىّ ربى وأخبرها الخبر وقال: لقد خشيت على نفسى فقالت له خديجة: كلا، أبشر فوالله لا يُخْزيكَ الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتقرى الضيف، وتصدق الحديث، وتؤدى الأمانة، وتحملُ الكل وتكسب المعدوم وتعينُ على نوائب الحق، فاقبل الذى جاءك من الله فإنه حق، وأبشر فإنك رسول الله حقاً.

ما أعظم السيدة خديجة وكم كان دورها جليلاً فى تثبيت فؤاد النبى ﷺ وكم كان قدرها جليلاً عند النبى ﷺ إن خديجة ما إن سمعت من النبى ذلك الذى قصه عليها من





نزول جبريل إليه بالوحى، حتى انطلقت برسول الله ﷺ مرة أخرى إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وقالت له: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة: يا ابن أخى ماذا ترى؟ فأخبره الرسول ﷺ خبر ما رأى فقال له ورقة: أبشر فأنا أشهد أنك الذى بشر به ابن مريم. هذا الناموس الذى أنزله الله على موسى وإنك لنبى وستؤمر بالجهاد بعد يومك هذا، ولئن أدركنى ذلك لأجاهدن معك، ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك.

هنا قال رسول الله ﷺ: أوَ مُخْرِجِيّ هم؟

فقال له ورقة: نعم لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودى.

تقول السيدة عائشة رضى الله عنها: إنه كان يوحى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته فتضرب بجرانها فما تستطيع أن تتحرك حتى يُسَرى عنه، وبعد أن انتهت السيدة عائشة رضى الله عنها من حديثها تلت الآيه الكريمة .

﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ (المزمل ٥)

هكذا كان يعانى رسول الله ﷺ عندما ينزَل الوحى عليه، فالله سبحانه وتعالى يقول مخاطباً النبى ﷺ «إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً».

ولكن لماذا وصفه الله سبحانه وتعالى بكلمة ثقيلاً؟

إنه لضعف قوى البشر عن تحمل مثل ذلك الوارد العظيم من ذلك الجناب الجليل

وقد نسأل:

ما معنى قول السيدة عائشة: إن راحلة الرسول ﷺ كانت تضرب بجرانها عندما ينزل عليه الوحى وهو على راحلته؟

والجواب هو أن الجران: هو باطن العنق، والمعنى أنها كانت تفعل ذلك لشدة الوحى وثقله. والأحاديث والروايات التى تتحدث عن شدة الوحى وثقله كثيرة تقول السيدة عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحى يغط فى رأسه ويتربد وجهه، ويجد برداً فى ثناياه حتى لينحدر منه مِثْلُ الجُمان. (أى اللؤلؤ).

قبل أن نسترسل مع حديث السيدة عائشة نتوقف عند بعض الكلمات التى تحتاج تفسيراً.. فماذا يعنى قوله يَغطُّ فى رأسه؟

الغطيط هو صوت يخرج من نَفَس النائم، والتربد هو كمُودَة فى اللون؛ أى غُبْرةٌ فى



سواد. تقول السيدة عائشة رضى الله عنها أيضاً: لقد رأيته (تعنى النبى ﷺ) ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عَرَقاً.

ويقول ابن عمر رضى الله عنهما ـ سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله هل تُحس بالوحى؟ فقال رسول الله ﷺ: أسمع صلاصل، ثم أسكت عن ذلك فما مرة يوحى إلىّ إلا ظننتُ أن نفسى تُقْبض.

ويصفُ عُبادة بن الصامت رضى الله عنه حال الرسول عند نزول الوحى فيقول: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحى كَرِب لذلك وتَرَبَّد وَغَمضَ عينيه.

أما أبو هريرة رضى الله عنه فيقول: كان رسول الله ﷺ إذا أوحى إليه لم يستطع أحد منا أن يرفع طرفه إليه حتى يقضىَ الوحى.

وتروى أسماء بنت يزيد رضى الله تعالى عنها.. فتقول: كنت آخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ حين أنزلت عليه سورة المائدة فكاد ينكسر عضدها من ثقل السورة.

ويقول ابن عمر رضى الله عنهما: أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٢﴾ (المائدة)

فتور الوحى

عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت: فَتر الوحى فترة حتى حزن ﷺ فيما بَلَغنا حُزْناً غدا منه مراراً حتى يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكى يلقى نَفْسَه منه، تَبَدَّى له جبريل عليه السلام فقال: يا مُحمد إنك رسول الله حقاً،

فيسكن لذلك جأشه وتَقَرُّ نَفْسُه فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحى غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له مثل ذلك.

يبين من حديث السيدة عائشة رضى الله عنها مدى ما ألم برسول الله ﷺ عندما فَتَر عنه الوحى فترة من الزمن فما هى الحكمة من فتور الوحى خلال تلك الفترة؟

والحكمةُ، والله أعلم، أن المولى سبحانه وتعالى أراد أن يُذهب عن الرسول ﷺ ما كان يجده من الروع، وليحصل له التشوق إلى العَوْد.

وقد اختلف فى مقدار فترة انقطاع الوحى فقال البعض: إنها كانت سنتين ونصف سنة، وقال البعض: إنها كانت أربعين يوماً وقيل أقل من ذلك.

ولكن كيف كانت عودة الوحى؟

رُوِى فى هذا الشأن حديث عن جابر رضى الله عنه يقول فيه: سمعت رسول الله ﷺ يُحدِّث عن فترة الوحى، قال: فبينما أنا أمشى سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصرى قبلَ السماء فإذا الملكُ الذى جاءنى بحراء قاعد على كرسى بين السماء والأرض فجثيت منه حتى هَوَيتُ إلى الأرض فجئت أهلى فقلت: زملونى زملونى فأنزل الله (قم فأنذر، وربَّك فكبر، وثيابَك فطهّر والرُّجزَ فاهجر).

ومضى رسول الله ﷺ على ما أمر به، على ما يَلْقىَ من قومه من الخلاف والأذى وكان أول من أسلم من الرجال:

أبو بكر الصديق.

ومن النساء:

خديجة زوجته ﷺ.

ومن الصبيان:

على بن أبى طالب.

ومن الموالى:

مولاه زيد بن حارثة.

ومن العبيد:

بلال رضى الله عنه.

كانت خديجة عوناً للرسول ﷺ ومخففة لما يلقاه من عنت ـ كان عليه الصلاة والسلام



لا يسمع شيئاً يكرهه من ردٍّ عليه، وتكذيب له، فَيَحْزُنُه ذلك إلا فرَّج الله عنه بها إذا رجع إليها تثبته وتخفف عنه، وتصدقه وتُهَون عليه أمر الناس..

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: أتى جبريلُ النبى ﷺ، فقال: يا رسولَ الله هذه خديجة، قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من رَبها وبشِّرها ببيت فى الجنة لا صَخب فيه ولا نَصَب.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: إن أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد.

إسلام أبى بكر

ويشدنا ذِكْرُ أوائل المسلمين إلى أن نتعرف على قصة إسلام أبى بكر الصديق رضى الله عنه.

لقى أبو بكر الصديق رسول الله ﷺ فقال: أحقٌّ ما تقولُ قريش يا محمد؟ من تَرْكك آلهتنا وتسفيهك عقولنا وتكفيرك آباءنا ؟

فقال ﷺ: بلى إنى رسولُ الله ونبيُّه، بعثنى لأبلغ رسالتَه، وأدعوك إلى الله بالحق فوالله إنه للحق، أدعوك يا أبا بكر إلى الله وحده لا شريك له ولا تعبد غَيْرَهُ والموالاة على طاعته، وقرأ عليه القرآن: فلم يُنكِر أبو بكر وكفر بالأصنام وخلع الأنداد، وأقر بحق الإسلام ورجع أبو بكر وهو مؤمن مصدق.

ويُروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوة وتردد ونظر، إلا أبا بكر، ما عكَمَ عنه حين ذكرته ولا تردد فيه.

يقول شاعر الإسلام المخضرم حسان بن ثابت فى أبى بكر الصديق:

إذا تذكرتَ شجواً من أخى ثقة
فاذكر أخاك أبا بكر بما فَعَلا
خَيْرَ البرِيَّة أتقاها وأفضلها
بعد النبى وأوفاها بما حَمَلا
والثانىَ التالىَ المحمودَ مَشْهَدُه
وأول الناس منهم صَدق الرُّسلا





كان مما أنعم الله على عليٍّ بن أبى طالب أنه كان فى حجر رسول الله ﷺ قبل الإسلام ولما أرادَ الله به من الخير. ذلك أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة وكان أبو طالب ذا عيال كثير فقال رسول الله ﷺ للعباس عَمِّه وكان من أيْسَر بنى هاشم: يا عباس إن أخاكَ أبا طالب كثيرُ العيال وقد أصاب الناسَ ما ترى من هذه الأزمة فانطلِق فخفف عنه من عياله.

فانطلقاَ حتى أتيا أبا طالب فقالا له: إنا نُريدُ أن نخففَ عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناسِ ما هُمْ فيه.

فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما لى عَقيلاً فاصنعا ما شئتما.

فأخذ رسولُ الله ﷺ علياً فضمه إليه وأَخذ العباس جعفراً فضمه إليه، فلم يزل عليٌّ مع رسول الله ﷺ وحتى بعثه الله نبياً، فاتبعه وصدَّقه، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه.

كيف أسلم على؟

كان رسول الله ﷺ وزوجته خديجة يُصَلّيان سراً، فجاءهما عليٌّ بن أبى طالب يوماً فوجدهما يصليان فقال على: ما هذا يا محمد؟

فقال رسول الله ﷺ: دين الله الذى اصطفى لنفسه وبعث به رُسُلَه فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له وإلى عبادته وكُفْر باللات والعُزَّى.. فقال على: هذا أمرٌ لم أسمع به قبل اليوم، فلست بقاض أمراً حتى أُحَدثَ به أبا طالب.. كَره رسول الله ﷺ أن يُفشى عليه سرَّه قبل أن يستعلن أمرهُ.. فقال له: يا على إذا لم تسلم فاكتم هذا فمكث على تلك الليلة، ثم إن الله تبارك وتعالى أوقع فى قلب على الاسلام فأصبح غادياً إلى رسول الله ﷺ حتى جاءه فقال: ماذا عرضت علىّ يا محمد؟

فقال له رسول الله ﷺ: تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وتكفر باللات والعُزّى وتبرأ من الأنداد.. ففعل على رضى الله عنه وأسلم، ومكث عليٌّ يأتيه على خوف من أبى طالب، وكتم إسلامه ولم يظهره.

ونعرف جميعاً أن أبا طالب كان يحب رسولَ الله ﷺ حُباً جَماً وكان رسولُ الله يحبه أيضاً لكن هذا الحب المتبادل لم يمنع الرسول ﷺ أن يطلب من على أن يكتم أمرَهُ ولم يمنع علياً من أن يكتم إسلامه عن أبيه.

ترى ماذا كان موقف أبى طالب عندما علم برسالة النبى وبإسلام على؟.



بقى الأمر سراً فترة من الزمن، فقد كان رسولُ الله ﷺ إذا حضرتْ الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه عليٌّ بنُ أبى طالب. مستخفياً من أبى طالب ومن جميع أعمامه، وسائر قومه فيصليان الصلاة، فإذا أمسيا رجعا، ومكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا.

ذات يوم عثر أبو طالب عليهما وهما يصليان فقال لرسول الله ﷺ: يا ابن أخى ما هذا الذى تدين به؟

فقال له الرسول: أى عم هذا دين الله ودين ملائكته ورسله ودينُ أبينا إبراهيم بعثنى الله به رسولاً إلى العباد، وأنت يا عم أحقُّ من بذلت النصيحة ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابنى إليه وأعاننى عليه.

فقال أبو طالب: أى ابن أخى إنى لا أستطيع أن أفارق دينَ آبائى وما كانوا عليه، ولكن والله لا يَخْلُص إليك شيء تكرهه ما بقيت.

وقال لعلى: أى بُنى ما هذا الدينُ الذى أنت عليه؟.

فقال على: يا أبت آمنتُ برسول الله ﷺ ، وصدقت بما جاء به وصليت معه.

فقال له: أما إنه لم يَدْعُكَ إلا إلى خيرٍ فالزمه.

كان على حين أسلم لم يتجاوز العاشرة على جميع الروايات. فقد قال الكلبى: أسلم علىٌّ وهو ابنُ تسع سنين، وقال الواقدى وابن إسحق: إنه أسلم وهو ابن عشر سنين.

توالى دخول الأفراد فى الإسلام وأصبح عدد المسلمين يتزايد يوماً بعد يوم لينصروا دين الله الحق، وينصروا رسوله الكريم.

إسلام حمزة

ولنتعرف الآن على قصة إسلام حمزة عم النبى ﷺ. تلك قصة طريفة جديرة بأن تُرْوى فقد اعترض أبو جهل رسول الله ﷺ عند الصفا، فآذاه وشتمه ونال منه ما يكرهُ من العيب لدينه فَذكر ذلك لحمزة فخرج يسعى لم يقف على أحد مُعداً لأبى جهل إذا لقيه أن يقع به، فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً فى القوم فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه بها شجة منكرة فقال: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول، فَرُدَّ على ذلك إن استطعت.

فقامت رجال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل.. فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة فإنى والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً.





ورجع حمزة إلى بيته فقال محدثاً نَفْسه: أنت سيدُ قريش اتبعت هذا الصابىء وتركت دينَ آبائك؟

للموتُ خيرٌ لك مما صنعت.. اللهم إن كان رُشْداً فاجعل تصديقه فى قلبى، وإلا فاجعل لى مما وقعت فيه مخرجاً.

وبات ليلة لم يَبت مثلها من وسوسة الشيطان حتى أصبح، فغدا على رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخى إنى قد وقعت فى أمر لا أعرفُ المخرجَ فيه، وإقامة مثلى على ما أدرى ما هو، أرُشْدٌ هو أم غَىٌّ شديد، فحدثنى حديثاً، فقد اشتهيت يا ابن أخى أن تحدثنى.

فأقبل رسولُ الله ﷺ عليه فذكّره ووعظه وخوّفه، فألقى الله تعالى فى قلبه الإيمان بما قال رسول الله ﷺ فقالَ: أشهدُ إنك لصادق فاظهر يا ابن أخى دينك، فوالله ما أحب أن لى ما أظلته السماء وأنى على دينى الأول.

وبقى حمزةُ على إسلامه وعلى ما بايع عليه رسولَ الله ﷺ من قوله، وقد كان حمزة أعز فتى فى قريش وأشدهم شكيمة، ولا شك أن إسلام حمزة كان له أثره فى شد أزر رسول الله ﷺ إذ لما أسلم حمزة عرفت قريش أن لرسول الله ﷺ عزاً ومنعة، فكفّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه.

وتروى كتب السيرة شعراً قاله حمزة رضى الله عنه بعد إسلامه.. قال فيه:

حَمَدْتُ الله حين هَدىَ فؤادى.
إلى الإسلامِ والدينِ الحنيف
لدين جاء من ربٍّ عزيزٍ
خبيرٍ بالعباد بهم لطيفِ
إذا تُليت رسائلهُ علينا
تحدر دمع ذى اللُّبِّ الحصيفِ
رسائل جاء أحمد من هُداها
بآياتٍ مبيِّنَةِ الحروفِ
وأحمد مُصطفَى فينا مطاعٌ
فلا تَغشَوُه بالقولِ الضعيفِ





فـــلا والله نُسْلمـــــهُ لقـــوم
وَلَمَّا نَقْـضِى فـيـهم بالـسـيـوفِ
ونتـــرك مِنهم قَــتْلَى بِقَـــاعٍ
عليـهـا الطَّيْـرُ كالورِدِ العُكُوفِ
وقـد خُـبِّرتُ مـا صَنَعتْ ثقـيف
به فـجـزى القـبـائلَ من ثقـيفِ
إلـهُ النـاسِ شَـــر جـــزاءِ قَـــوْمٍ
ولا أسـقــاهُمُ صَـوْبَ الخـريف

فى دار الأرقم

كان رسول الله ﷺ ، يدخل ومن أسلم معه من قومه دار الأرقم بن أبى الأرقم يعبدون الله تعالى فيها سراً من القوم.

وتذكر كتب السيرة موقفاً لأبى بكر الصديق وكان ضمن الذين يعبدون الله مع الرسول سراً فى دار الأرقم بن أبى الأرقم وهو موقف يدل على صلابة إيمان أبى بكر..

فعن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت: لما اجتمع أصحاب النبى ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً، ألح أبو بكر رضى الله عنه على رسول الله ﷺ فى الظهور فقال: يا أبا بكر إنَّا قليل. فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ وتفرق المسلمون فى نواحى المسجد كل رجل فى عشيرته وقام أبو بكر فى الناس خطيباً ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله ﷺ.

وتمضى السيدة عائشة فى روايتها فتقول: ثار المشركون على أبى بكر وعلى المسلمين ووطئ أبو بكر وضرب ضرباً شديداً ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين حتى ما يعرف وجهه من أنفه فجاءت بنو تميم يتعادون فأجلت المشركين عن أبى بكر وحملت بنو تميم أبا بكر فى ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكون فى موته، ثم رجعت بنو تميم فدخلوا المسجد وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة، ورجع بنو تميم إلى أبى بكر فجعل أبو قحافة وبنو تميم يكلمون أبا بكر حتى أجاب فتكلم فى آخر النهار فقال: ما فعل رسولُ الله ﷺ ؟.

فقالوا لأمه أم الخير: انظرى أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه.

فلما خلت به وألحت عليه جعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ ؟

فقالت: والله ما لى علم بصاحبك.





فقال: اذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه. فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله، فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك. قالت: نعم..

فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً فدنت أم جميل وأعلنت صائحة: والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر وإنى لأرجو أن ينتقم الله منهم.

قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟

قالت: هذه أمك تسمع (وكانت أمه لم تسلم بعد).

قال: فلا شىء عليك منها. قالت: سالم صالح.

قال: فأين هو؟. قالت: فى دار الأرقم.

قال: فإن لله علىّ لا أذوق طعاماً ولا أشربُ شراباً أو آتى رسولَ الله ﷺ.

تقول السيدة عائشة: فَأمهلنا حتى إذا هدأت الرِّجْل وسكن الناس خرجنا به يتكئ علىّ حتى أدخلناه على رسول الله ﷺ، فَأكبَّ عليه رسول الله ﷺ يُقَبِّله، وأكب عليه المسلمون ورقّ له رسول الله ﷺ رقة شديدة فقال أبو بكر: بأبى وأمى يا رسولَ الله ليس بى بأس إلا ما نال الناس من وجهى، وهذه أمى بَرَّةٌ بولدها، وأنت مبارك فعسى الله أن يستنقذها بك من النار ـ فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله فأسلمت وأقاموا مع رسول الله ﷺ فى الدار شهراً.

يقول ابن إسحق: كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صَلّوا ذهبوا فى الشعَاب، واستخفوا بصلاتهم من قومهم فبينا سعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فى شعْب من شعاب مكة إذ ظهر عليهم نَفَرٌ من المشركين وهم يُصَلُّون فناكروهم وعابوا عليهمْ ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبى وقاص يومئذ رَجُلاً من المشركين بِلَحيَىْ بعير (أى عظمتى فك البعير) فشجه وكان هذا أول دم أريق فى الإسلام.

الجهر بالدعوة

ظل رسول الله ﷺ بضع سنين يدعو إلى الله سراً حتى نزل عليه قول الله تبارك وتعالى:

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ (الحجر)





فكان ذلك بمثابة أمر من الله تعالى للنبى أن يصدع بما جاء به من عند الله، وأن يُبَادىَ الناسَ بأمره، وأن يدعو إلى الله تعالى.

ولما نزلت هذه الآيات على النبى ﷺ، اشتد ذلك عليه وضاق به ذرعاً، فمكث شهراً أو نحوه جالساً فى بيته حتى ظنت عماتُه أنه شاك، فدخلن عليه عائدات، فقال: ما اشتكيت شيئاً لكن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين، فأردت جمع بنى عبد المطلب لأدعوهم إلى الله تعالى.

فَقُلن له: فادعهم ولا تجعل عبد العُزّى منهم. (يقصدون أبا لهب) فإنه غير مجيبك إلى ما تدعوه إليه. وخرجن من عنده.

ولما أصبح رسول الله ﷺ بعث إلى بنى عبد المطلب فحضروا ومعهم عدةٌ من بنى عبد مناف وجميعهم خمسة وأربعون رجلاً، وسارع إليه أبو لهب، وقال أبو لهب للنبى: هؤلاء عمومتك وبنو عَمّك، فتكلم بما تريد ودع الصلاة، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة وما رأيت يا ابن أخى أحداً قط جاء بنى أبيه وقومه بِشَرٍّ مما جئتَهم به.

سكت رسول الله ﷺ ولم يتكلم فى ذلك المجلس ومكث أياماً، وكثر عليه كلام أبى لهب فنزل جبريل عليه السلام على سيدنا محمد ﷺ وأمره بإظهار ما أمره الله به وشجعه عليه وجمع رسول الله ﷺ عشيرته مرة ثانية وقال لهم: الحمد لله، أحمده وأستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ثم قال.. إن الرائد لاَ يكذُبُ أهْلَه، والله لو كَذَبْتُ الناسَ جميعاً ما كذبْتُكم، ولو غررتُ الناس ما غررتُكم، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسولُ الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة، والله لتَموتُن كما تنامون، ولتُبْعثُن كما تستيقظون، ولتحاسَبُنّ بما تعملون، ولَتُجْزونّ بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً، وإنها لَلجنة أبداً أو النارُ أبداً، وإنكم لأولُ مَنْ أنذِر، وَمثَلى وَمثَلُكم كمثَلَ رَجُلٍ رأى العدو فانطلق يَرْبأ أهْلَه فخشى أن يسبقوه فجعل يهتف يا صباحاه..

وتحدث بعد ذلك أبو طالب فقال: ما أحب إلينا مُعاونتُك ومُرافدتُك، وأقْبلنا لنُصحك وأشدَّ تصديقنا لحديثك، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم، غير أنى والله أسرعهم إلى ما تحب ، فامض لما أمرت به فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أنى لا أجد نفسى تطوعُ إلى فراق دين عبد المطلب حتى أموت على ما مات عليه.



ومضى القوم يتكلمون فقالوا كلاماً ليناً غير أبى لهب، فإنه قال: يا بنى عبد المطلب.. هذه والله السَّوْءَة، خذوا على يديه قبل أن يأخذ على يديه غيركم، فإن أسلمتموه حينئذ ذَلَلْتم، وإن منعتموه قُتلتم وهنا رد عليه أبو طالب فقال: والله لنَمنعنه ما بقينا. وتكلمت صفية بنت عبد المطلب عَمةُ رسول الله ﷺ فقالت لأبى لهب: أى أخى، أيحْسُنُ بك خُذلان ابن أخيك وإسلامُه، فوالله ما زال العلماء يخبرون أنه يخرج من ضِئضئ عبد المطلب نبى، فهو هو فردٌ أبو لهب قائلاً: هذا والله الباطل والأمانىّ، وكلام النساء فى الحجال اذا قامت بطون قريش كلّها وقامت معها العرب فما قوتنا بهم؟ فوالله ما نحن عندهم إلا إِكْلَةَ رأسى.

إلى هذا الحد كانت معاداة أبى لهب لدعوة رسول الله ﷺ وفى الروايات كثير من المواقف المناهضة للدعوة من جانب أبى لهب.

ومما يروى أن رسول الله ﷺ لما أنزل عليه «وأنذر عشيرتك الأقربين» قام على الصفا فعلا أعلاها ثم نادى: يا صباحاه. فقالوا: من هذا؟ وجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج يُرْسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش فاجتمعوا إليه، فقال رسول الله ﷺ: إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مُصَدِقىَّ؟ فقالوا: ما جربّنا عليك كذباً.

فقال رسول الله ﷺ : يا معشر قريش انقذوا أنفسكم من النار، فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئاً. يا بنى عبد مناف انقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئاً. يا بنى كعب بن لؤىّ.. انقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئاً. يا عباس عمّ رسول الله ﷺ انقذ نفسك من النار فإنى لا أغنى عنك من الله شيئاً، يا صفية عمةُ محمد.. ويا فاطمة بنت محمّد انقذا أنفسيكما من النار فإنى لا أملك لكما من الله شيئاً، غير أن لكما رَحماً سأبلها ببَلالِها، إنى لكم نذير بين يدى عذاب شديد - ثم قال رسول الله ﷺ : يا بنى عبد المطلب إنى والله ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، إنى قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة.

فقال أبو لهب لرسول الله ﷺ:

تباً لكَ سائرَ اليوم، ألهذا جمعتَنا؟

فنزل قوله تعالى:



﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ (سورة المسد)

مضى رسول الله ﷺ يدعو إلى دين الله كما أمره بذلك المولى سبحانه وتعالى، وكان لا بد أن يَذْكُرَ آلهة القوم التى اتخذوها من الأصنام وأن يعيبها، فلما فعل ذلك استعظموه منه واجتمعوا على عداوته إلا من عَصَم الله تعالى منهم بالإسلام وهم قليل مستخفون وحَدب على رسول الله ﷺ عَمّهُ أبو طالب ومنعه من القوم وقام دونه، ومضى رسولُ الله ﷺ على أمر الله مظهراً لأمره لا يرده عنه شيء.

ومشى رجال من أشراف قريش إلى عمه أبى طالب فقالوا له: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسَفّه أحلامَنا، وضلل أبناءنا، فإما أن تَكفّه وإما أن تُخَلّى بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه.

فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً، وردهم رداً جميلاً.

ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه يُظهرُ دين الله ويدعو إليه. لكن قريشاً أكثرت من ذكر رسول الله ﷺ بينها وازداد حقدهم وغضبهم، وأخذ يَحض بعضهم بعضاً عليه وعاودوا الكرّة مع أبى طالب مرة أخرى فمشوا إليه وقالوا له: يا أبا طالب إن لك سنّاً، وإن لك شرفاً ومنزلة فينا، وإنا وقد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتّى تكُفه عنا أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلكَ أحد الفريقين. وانصرف القوم من عند أبى طالب لكن أبا طالب عَظُم عليه فراق قومه وعداوتُهم، ولم يطب نفساً بأن يسْلمهم رسول الله ﷺ ولا أن يخذله.. فأرسل إلى رسول الله ﷺ يحدثه فى ذلك الأمر.

تنازعت أبا طالب أحاسيس شتى بعد أن شكت إليه قريش من رسول الله ﷺ وطلبت إليه أن يكفه عنهم أو ينازلوهما فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين فأرسل أبو طالب إلى رسول الله ﷺ ليحدثه فى الأمر ويقول له: يا ابن أخى إن قومك قد جاءونى وقالوا لى إنهم لا يصبرون على ما تفعله بهم من شتم آبائهم وتسفيه أحلامهم وعيب آلهتهم حتى



أكفك عنهم أو ينازلونني وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين، فابْقِ على نَفْسكَ وعليّ، ولا تُحَمّلني من الأمر ما لا أطيقه.

ظن النبي عليه الصلاة والسلام أن عَمّه قد ضعف عن نصرته، وبدا له أن عمّه خاذلهُ ومُسلمهُ إلى القوم، لكن رسول الله ﷺ قال له: يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يُظهره الله أو أهْلكَ دونه، ثم استعبر رسولُ الله ﷺ، فلما ولّى ناداه أبو طالب وقال له: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمُكَ لشيء أبداً..

والله لن يَصلوا إليك بجمعهم
حتى أوسّدَ في التراب دفينا
فامض لأمرك ما عليك غضاضة
وأبشر وقر بذاك منك عيونا
ودعوتني وزعمتَ أنك ناصحي
ولقد صدقْتَ وكُنْتَ ثمّ أمينا
لولا الملامة أو حذاري سُبّةً
لوجَدتْني سَمْحاً بذاك مُبينا

أدْركَتْ قريشُ إذن أن أبا طالب قد أبى خذْلانَ رسول الله ﷺ وعَزمَهُ على فراقهم في ذلك وعداوتهم ولكن هل كفّت عن محاولاتِها مع أبي طالب؟

لقد عاودت قريش الكرة مرة أخرى، فمشوا إلى أبي طالب ومعهم عُمارة بنُ الوليد ابن المغيرة وكان فتىً جميلاً من فتيان قريش وقالوا له: يا أبا طالب، هذا عُمارة بن الوليد أنْهدُ فتى من قريش وأجمله فخذه فلَكَ عَقْله ونصرهُ، واتخذه ولداً فهو لك، وأسْلِمَ إلينا ابنَ أخيك هذا الذي قد خالف دينَنا ودين آبائِك وفَرق جماعة قومِك وسَفّهَ أحلامهم فنقتلُه، فإنما هو رَجُلٌ برجل.

وكانت هذه حيلة مكشوفة ومُحَاولَة يائسة من قريش لا يمكن أن تنطلي على أبي طالب.

قال لهم أبو طالب:

والله لبئس ما تسومونَنيِ، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه؟!





هذا والله ما لا يكون أبداً أرأيتم ناقة تحنُّ إلى غير فصيلها.

وكان مع قريش المطعم بن عَدى، فلم يُعجبهُ قول أبى طالب. فقال له: والله يا أبا طالب. لقد أنصفك قومُك وجَهدوا على التخلص مما تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً.

هنا قال أبو طالب للمُطعم: والله ما أنصفونى ولكنك قد أجْمَعتَ خذلانى ومظاهرة القوم علىّ فاصنع ما بدا لك. وتَوَتر الموقف.

فتنابذ القوم ووثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم، ومنع الله تعالى رسول الله ﷺ بعمه أبى طالب. وإن كان لم يَسلم من محاولات الإيذاء، وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ : لقد أوذيت فى الله وما يؤذى أحد، وأخفت فى الله وما يخاف أحد.

رغم ذلك فقد استمر رسول الله ﷺ يدعو إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً، سراً وجهراً لا يصْرِفُه عن ذلك صارف، ولا يردُّه عن ذلك راد، ولا يصده عن ذلك صاد، يتتبعُ الناسَ فى أنديتهم ومجامعهم ومحافلهم، وفى المواسم ومواقف الحج، يدعو من لقيه حر وعبد، وغنى وفقير، جمَيعُ الخلقِ عنْدَه سواء.

لم يثنه عن الدعوة أنْ تَسلط عليه وعلى أتباعه الأشداء الأقوياء من مشركى قريش بالإيذاء فعلاً وقولاً، وكان من أشد الناس عليه عَمُّه أبو لهب، واسمه عبد العُزّى بن عبد المطلب وامرأته أم جميل أروى بنت حرب بن أمية أخت أبى سفيان.

كان من بين الذى آذوا رسولَ الله ﷺ «أبو جهل» وذات يوم قال أبو جهل لقومه: يا معشر قريش إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وسب آلهتنا، وإنى أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر، فإذا سجد فى صلاته فَضَخْتُ به رأسه فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم.

فلما أصبح أبو جهل (لعنه الله) أخذ حجراً ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو،وكانت قبلتُه الشام فكان إذا صلى بين الركنين الأسود واليمانى، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، فقام رسول الله ﷺ يصلى، وقد غدت قريش فجلسوا فى أنديتهم ينتظرون، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منبهتاً ممتقعاً لونهُ مرعوباً قد يبست يداه على حجره حتى



سقط الحجر من يده وقامت إليه قريش فقالوا: ما بك يا أبا الحكم؟.

قال أبو جهل: قمت إليه لأفعل ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل، والله مارأيت مثل هامته، ولا قصرته ولا أنيابه لفحل قط فهمّ أن يأكلني.

وقد ذُكِر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: ذلك جبريل.. لو دنا منه لأخذه.

وتذكرنا هذه الواقعة، بقصة الرجل الإراشي وهو رَجُلٌ قَدِم من إراش بإبل له إلى مكة فابتاعها منه أبو جهل بن هشام، فمطله بأثمانها فأقبل الإراشي حتى وقف على نادى قريش، ورسول الله ﷺ جالس فى ناحية المسجد فقال: يا معشر قريش من رجل يؤدينى على أبى الحكم بن هشام، فإنى غريب وابن سبيل وقد غلبنى على حقى.

فأشار أهل المجلس إلى رسول الله ﷺ وهم يعلمون ما بين الرسول وبين أبى جهل من العداوة ولكنهم أرادوا الاستهزاء بالرسول ﷺ وقال قائلهم: ترى ذلك؟ اذهب إليه فهو يؤديك عليه.

أقبل الإراشى حتى وقف على رسول الله ﷺ فذكر له ما حدث، فقام معه، فلما رأوه قام معه قالوا لرجل ممن معهم: اتبعه فانظر ما يصنع، فخرج رسول الله ﷺ معه إلى بيت أبى جهل فضرب عليه بابه فقال أبو جهل: من هذا؟ فقال له الرسول ﷺ : محمد فاخرج فخرج إليه أبو جهل وما فى وجهه قطرة دم وقد امتقع لونه فقال له الرسول: إعط هذا الرجل حقه.

فقال أبو جهل: لا تبرح حتى أعطيه الذى له.

فدخل أبو جهل ثم خرج إليه بحقه ودفعه إليه، ثم انصرف رسول الله ﷺ وقال للإراشى: الحق وشأنك.

فأقبل الإراشى حتى وقف على ذلك المجلس فقال:

جزاه الله خيراً فقد أخذت الذى لى.

وجاء الرجل الذى بعثوه معه فقالوا له: ويحك ماذا رأيت؟ فقال: رأيت عجباً من العجب، والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه، فخرج وما معه روحُه، فقال: اعط هذا الرجل حَقه. فقال: نعم لا تبرح حتى أخرج إليه حقه، فدخل فأخرج إليه حقه فأعطاه.

ولم يلبث أن جاء أبو جهل فقالوا له: ويلك ما لك؟





فوالله ما رأينا مثل ما صنعت.

فقال لهم أبو جهل: ويحكم، والله ما هو إلا أن ضرب عليّ بابى، وسمعت صوتَه فملئت رعباً، ثم خرجت إليه وإن فوق رأسى لفحلاً من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا قصرته ولا أنيابه لفحل قط، فوالله لو أبيت لأكلنى.

لما رأت قريش أن أصحاب الرسول ﷺ يزداد عددهم، وأصبح للدعوة خطرها اجتمعت قريش لتدارس الأمر فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذى فرّق جماعتنا، وشتت أمرنا، وعاب ديننا فيكلمه ولينظر ما يرد عليه، فقالوا: ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة، فقالوا: أنت أبا الوليد.

فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخى... إنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم. وسفهت أحلامهم وعبت آلهتهم ودينهم وكفرت من مضى من آبائهم، يا محمد أنت خيرٌ أم عبدُ الله؟

فسكت رسول الله ﷺ ، فقال عتبة: أنت خيرٌ أم عبدُ المطلب؟

فسكت رسول الله ﷺ، فقال عتبة: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خيرٌ منك فقد عبدوا الآلهة،وإن كنت تزعم أنك خيرٌ منهم فتكلم نسمع قولك، إنَّا والله ما رأينا قط أشأمَ على قومه منك، فرقت جماعتنا، وشتّتَتَ أمرنا وعبت ديننا وفضحتنا فى العرب، حتى طار فيهم أن فى قريش ساحراً، وأن فى قريش كاهناً.. والله ما ننتظرُ إلا مثلَ صيحة الحُبلَى أن يقوم بَعْضُنا بعضاً إليك بالسيوف حتى نتفانَى. أيها الرجل اسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها.

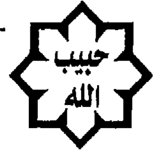
فقال له رسول الله ﷺ : قل أبا الوليد أسمع.

فقال عتبة: يا ابن أخى.. إن كُنْتَ تريد بما جئتَ به من هذا الأمر مالاً جمعناه لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به الشرف سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد مُلْكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً لا تستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلْنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غَلَب التابعُ على الرجل حتى يداوى منه.

ولما فَرغ عتبة ورسول الله ﷺ يسمع منه قال له الرسول: أقد فرغْتَ أبا الوليد؟

قال عتبة: نعم.





فقال رسول الله ﷺ : فاسمع منى وتلا رسول الله ﷺ قول الحق تبارك وتعالى:

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ (فصلت)

فأمسك عتبة على فم الرسول ﷺ وناشده الرحم أن يكف عنه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال: قد سَمِعْتَ أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك.

فقال عتبة: ما عندك غير هذا؟

فقال رسول الله ﷺ : ما عندى غير هذا.

فقام عتبة ولم يعد إلى أصحابه واحتبس عنهم، فقال أبو جهل: والله يا معشر قريش ما نرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد وأعجبه طعامه وما ذاك إلا من حاجة أصابته فانطلقوا بنا إليه.

فانطلق القوم حتى أتوه فقال أبو جهل: والله يا عتبة ما جئناك إلا أنك قد صبوت





إلى محمد وأعجبك أمره فإن كان لك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد.

فغضب عتبة وأقسم لا يكلم محمداً أبداً وقال: لقد علمتم أنى من أكثر قريش مالاً ولكننى أتيته وقلت له... وقص عليهم عتبة القصة. فسألوه: فما أجابك؟. فقال عتبة: والله ما فهمت شيئاً مما قال غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فأمسكت بفيه وناشدته الرحم أن يكف وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخفت أن ينزل عليكم العذاب.

قال له القوم: ويلك يكلمك الرجل بالعربية لا تدرى ما قال؟

فقال عتبة: والله ما سمعت مثله، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة.. يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها لى وخلوا بين الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ فإن تُصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به يا قوم أطيعونى فى هذا الأمر واعصونى بعده فوالله لقد سمعت من هذا الرجل كلاماً ما سمعت أذناى كلاماً مثله، وما دريت ما أرد عليه.

قال له القوم: سحرك والله يا أبا الوليد.

فقال لهم: هذا رأيى فاصنعوا ما بدا لكم.

اجتمع أشراف قريش من كل قبيلة عند غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تُعْذروا فيه، فبعثوا إليه فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً، وهو يَظُن أنهم قد تحولوا عن موقفهم، وكان عليه الصلاة والسلام حريصاً عليهم ويعز عليه عَنَتُهم.

فقال قائلهم: يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة، فما بقى أمر قبيح إلا جئته فيما بيننا وبينك فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تريد به الشرف فينا فنحن نسودك علينا وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك، فربما كان ذلك، بذلنا أموالنا فى طلب الطب لك





حتى نبرئك منه أو نُعْذر فيك.

فقال لهم رسول الله ﷺ : ما بى ما تقولون، ما جئت بما جئت به أطلب أموالكم ولا الشرفَ فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله تعالى بعثنى إليكم رسولاً وأنزل علىّ كتاباً وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم.

عندئذ قالوا له: يا محمد إن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضنا لك فإنك قد عَلمْتَ أنه ليس أحَدٌ أضيق بلداً ولا أقلّ مالاً ولا أشد عيشاً منا، فاسأل لنا ربك أنهاراً كأنهار العراق والشام، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن ممن يبعث لنا منهم قصَىٌّ بن كلاب، فإنه كان شَيْخَ صِدقٍ فنسألهم عما تقول، أحقٌّ هو أم باطل؟. فإن صَدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا منزلتك من الله وأنه بعثك إلينا رسولاً كما تقول.

فقال لهم رسول الله ﷺ : ما بهذا بُعثت لكم، إنما جئتكم من الله بما بعثنى به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تَرُدوه أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم.

عندئذ قالوا له: إذا لم تفعل فخُذ لنفسك سَلْ ربك يبعث معك مَلَكاً يصدقُك بما تقول ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جناناً وقَصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغى، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس الرزق وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك إن كنتَ رسولاً.

فقال لهم رسول الله ﷺ : ما أنا بفاعل، ما أنا بالذى سأل ربّه هذا، وما بُعثت إليكم بهذا. ولكن الله بعثنى بشيراً ونذيراً فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم.

فقال له قائلهم: فأسقط السماء علينا كِسَفاً كما زعمت إن ربك إن شاء فعل فإنّا لا نؤمن لك إلا أن تفعل.

فقال رسول الله ﷺ : ذلك إلى الله عز وجل إن شاء أن يفعله بكم فعله.

فقالوا له: يا محمد فما عَلم ربُّك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب إليك ما نطلب فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو صانع فى ذلك





بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به؟ إنه قد بلغنا أنك إنما يُعَلِّمُك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعْذَرنَا إليك يا محمد، وإنا والله لا نتركك وما بَلَغْت منا حتى نُهلكك أو تهلكنا.

وقال قائل آخر منهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً.

فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قام عنهم وقام معه عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وهو ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب، ولم يكن قد أسلم بعد. فقال له: يا محمد عرض عليك قَومُك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك، فلم تفعل، ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تُخوفهم به من العذاب فلم تفعل، فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سُلماً ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ثم تأتى بأربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وأيم الله إن لو فعلتَ ذلك ما ظننت أنى أصدقك.

ثم انصرف عبد الله بن أمية عن رسول الله ﷺ وانصرف الرسول عليه الصلاة والسلام حزيناً آسفاً لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه لما رأى من مباعدتهم إياه.

ما أكثر ما لاقى رسول الله ﷺ من العنت من جانب قريش لكنه ﷺ كان شديد الصبر واسع الصدر، رغم عنتهم وعنادهم لقد بلغ بهم العناد والعنت أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً وأن يُنَحى عنهم الجبال فيزرعون. إنهم يطلبون منه الخوارق والمستحيلات ولم يكن ذلك على الله بعزيز، لكن الله سبحانه وتعالى يعلم أنهم لو شاهدوا ما أرادوا لاستمروا فى طغيانهم يعمهون، ولظلوا فى غيهم وضلالهم يترددون، فلقد رأوا من دلائل النبوة ما فيه شفاء لمن كان عنده قدر من إنصاف أن طلبهم للخوارق والمعجزات يكشف عن جهلهم بحكمة الله تعالى فى امتحانه الخلق وأن يكون إيمانهم عن نظر وَتَفَكر ثم نعود إلى طلب أهل مكة من رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً وأن ينحى عنهم الجبال فيزرعون!!

هنا تدخلت السماء فأتى جبريلُ الرسول ﷺ وقال له: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن شئت أصبح الصفا لهم ذهباً فمن كفر منهم بعد ذلك عَذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئتَ فَتَحْتُ لهم باب التوبة والرحمة.





فماذا اختار رسول الله ﷺ لقد اختار الرحمة وقال: أى ربِّ باب الرحمة.

واجه الرسول ﷺ الكثير من طلب الخوارق والمعجزات من جانب قريش، فهل تلقى الرسول ﷺ وحياً من السماء يرد على كل ما يطلبون كُفْراً وعناداً؟

أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى مواضع كثيرة، يقول المولى عزّ وجل فى سورة الإسراء:

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٣﴾﴾ (الإسراء)

ويقول الله عز وجل فى سورة العنكبوت:

﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ (العنكبوت)

وعن أنس رضى الله عنه أن أبا جهل قال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء فنزلت الآية الكريمة:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأنفال)

فلما أخرجوا الرسول ﷺ من مكة نزلت الآية الكريمة:

﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ (الأنفال)





ولم يكتف المشركون بطلب الخوارق والمعجزات من رسول الله ﷺ، بل إنهم حاولوا أن يمتحنوا الرسول بسؤاله عن أشياء لا يعرفها إلا نبى. وفى ذلك حكاية مشهورة فعندما بعثت قريش النضر بن الحارث ومعه عُقبة بن أبى مُعيْط إلى أحبار يهود المدينة ليسألاهم عن محمد. وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش، وكان ممن يؤذى رسولَ الله ﷺ وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً فذكر فيه بالله وَحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله عز وجل خَلَفَه فى مجلسه إذا قام ثم قال: أناَ وَالله يا معشر قريش أحسنُ حديثاً منه فَهَلُمّ إلىّ فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ثم يحدثهم عن ملوك فارس ثم يقول: بماذا محَمد أحسن حَديثاً منى، وما أحاديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما كَتَبْتُها.

ألا لعنة الله عليه.

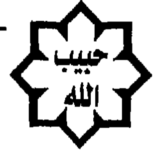
قال ابن إسحق: وكان ابن عباس يقول فيما بلغنى إنه أنزل فيه ثمان آيات من القرآن الكريم مثل قوله تعالى :

﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ (القلم)

بعثت قريش النضر بن الحارثَ وصاحبه عُقْبة بن أبى معيط، إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لهما: اسألاهم عن محمد، وصفا لهم صفته وأخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علِمٌ ما ليس عندنا من علم الأنبياء.

فخرجا حتى قدما المَدينة فسألا الأحبار عن رسول الله ﷺ ووصفا لهم أمره وأخبراهم ببعض قوله فقالت لهم أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجيب واسألوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبأه، واسألوه عن الروح ما هى، فإن أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبى، وإن لم يفعل فهو رجل متقوّل فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم.

أقبل النضرُ بن الحارث وعقبة بن أبى مُعَيْط حتى قدما مكة على قريش فقالا: قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمَرَنا أحبارُ يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها، فإن أخبركم عنها فهو نبى وإن لم يفعل فالرجل متقول فَرَوْا فيه رأيكم فجاءوا رسولَ الله ﷺ فسألوه فى تلك الأشياء فقال لهم: أخبركم بما سألتم عنه غداً. فانصرفوا



عنه.

لماذا أجّل الرسول ﷺ إجابته عليهم إنه ينتظر وحى السماء لكى يتلقى من الله الإجابة.

ومكث رسول الله ﷺ فيما يذكرون خمس عشرة ليلة، وقيل إنما أبطأ الوحيُ عنه ثلاثة أيام لا يحدثُ الله تعالى فى ذلك وحياً ولا يأتيه جبريل. وكأنى بأهل مكة يرجفون ويتقولون على النبى ﷺ.

وقد أحزن رسولَ الله ﷺ تأخر الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة. إلى أن جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة الكهف وفيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبَر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف والروح أما المعاتبة ففى قوله تعالى:

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ (الكهف)

وأما أمر الفتية ففى قوله تعالى:

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾ (الكهف)

إلى آخر الآيات الكريمة التى وردت فى سورة الكهف

وأما عن الرجل الطواف، ففى قوله تعالى:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾ (الكهف)

وأما عن أمر الروح، نزل قول الله تبارك وتعالى:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ (الإسراء)

وهكذا جاء الوحى مجيباً على أسئلتهم، مفحماً لهم، مؤكداً على صدق نبوة الرسول ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾ (الاسراء)





هذه الآية الكريمة تذكرنى بما كان يقع فى مستهل الدعوة الإسلامية، فقد روى أن هذه الآية نزلت ورسولُ الله ﷺ مُتَوارٍ بمكة فكان إذا صلى بأصحابه رفعَ صوته بالقرآن، فإذا سمع ذلك المشركون سَبّوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به وأبوا أن يسمعوا منه.

وكان الرجل إذا أراد أن يسمع من رسول الله ﷺ بعضَ ما يتلوه وهو يصلى، استرق السمع دونَهم خوفاً منهم، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يسمع ذهب خشية أذاهم فلم يستمع فإن خَفَض رسول الله ﷺ لم يسمع الذين يستمعون من قراءته شيئاً فأنزل الله تعالى «ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً» يروى أن أول من جَهَرَ بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة عبد الله بن مسعود رضى الله عنه وأرضاه، ومما يروى أن أصحاب رسول الله ﷺ اجتمعوا يوماً فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يُجْهَرُ لها به قط فَمَنْ رَجُلٌ يُسْمِعْهُمُوه؟

فقال عبد الله بن مسعود: أنا.

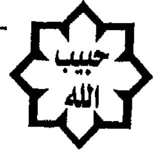
قالوا: إنّا نخشاهم عليك، إنما نريد رَجُلاً له عشيرةٌ يمنعونه من القوم إذا أرادوه.

ولم يخف عبد الله بن مسعود فهذا الرعيل الأول من المسلمين لم يكن يخشى فى سبيل الدعوة شيئاً وكانوا يثقون أن الله لا بد أن ينصرهم ويثبت أقدامهم.

قال ابن مسعود لأصحابه: دعونى فإن الله سيمنعنى وغدا ابن مسعود حتى أتى المَقَام فى الضحى وقريش فى أنديتها حتى قام عند المقام ثم أخذ يقرأ:

﴿الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ (الرحمن)

ومضى ابن مسعود يقرأ آيات السورة وقريش تستمع إليه، ويقول بعضهم لبعض: ماذا قال ابن أم عَبْد، إنه ليتلو بَعْضَ ما جاء به محمد، قوموا بنا نضربه حتى يكفَّ عما



يقول.

وجعلوا يضربونه فى وجهه، وجعل هو يقرأ غير آبه بما يفعلونه حتى بلغ ما شاء الله أن يبْلُغ. وبعد أن انتهى من قراءة القرآن انصرف إلى أصحابه، وقد بدت علامات الاعتداء على وجهه فقالوا له: هذا الذى خشينا.

فقال بكل الإيمان: ما كان أعداءُ الله تعالى أَهْوَنَ عَلَىّ منهمُ الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غداً، أى اذهب إليهم يوم غدٍ مَرة أخرى لأسمعهم القرآن... يا لقوة الإيمان إنها تنزع الخوف من القلوب.

لكن أصحابه أشفقوا عليه وقالوا له: لا حَسْبُك، قد أسْمَعتهم ما يكرهون.

بلال وصحبه

اشتد إيذاء الكفار للمسلمين، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش وكان أبو جهل هو الذى يُغرى بهم رجال قريش إذا سمع بالرجل أسلَم، وكان له شرَف ومَنَعة، أنبه وأخزاه وقال له: تركت دين أبيك وهو خيرٌ منك لنُسَفهن حلْمكَ، ولنضعن شرفكَ.

وإذا كان تاجراً قال له: والله لَنُكْسدَن تجارتك ولنُهلكَن مالك.

وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به، ومن المستضعفين كان بلال رضى الله عنه، وكان صادق الإسلام طاهر القلب. تعرض بلال رضى الله عنه لكثير من صنوف تعذيب المشركين له، وتحمل من ذلك العذاب ما يعجز عن تحمله البشر كان أمية بن خلف يُخْرِجهُ إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره فى مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعُزّى.

فيقول له بلال وهو فى ذلك البَلاء: أحدٌ أحدٌ أنا كافر باللات والعُزى.

فماذا يكون من أمية بن خلف؟

كان أمية يزيده عذاباً حتى يُغْشَى عليه، فلما يُفيق يعاود تعذيبه من جديد وكانوا يجعلون فى عنقه حَبْلاً ويأمرون صبيانهم أن يشتدوا به بين جَبَلى مكة، وهو يقول: أحَدٌ أحدٌ.

وما تراجع بلال قط رغم كل ما لقيه من صنوف التعذيب، وكان إذا اشتد عليه العذاب قال: أحد أحد فيقولون له: قل كما نقول. فيقول: إن لسانى لا ينطق به ولا يحسنه.





وذات يوم مَرَّ به أبو بكر الصديق رضى الله عنه وهم يفعلون به ذلك، فقال لأمية: ألا تتقى الله فى هذا المسكين، حتى متى تُعَذِّبه؟

فقال له أمية: أنت أفسدته فأنقذه مما ترى.

قال له أبو بكر: أفعَل عندى غلام أسود أجْلَدُ منه وأقوى على دينك أعطكه به.

فقال له أمية: قد قبلت

فقال له أبو بكر: هو لك.

وأعطاه أبو بكر غلامه ذلك، وأخذ بلالاً فأعتقه.

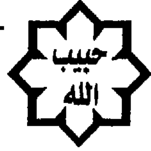
لم يكن بلال هو الوحيد ممن أسلموا، الذى تعرض لتعذيب المشركين وأذاهم، ولكنهم كانوا كثيرين منهم خَبّابَ بن الأرَتّ، وصهيب بن سنان الرومى، وعامرَ بن فُهيرة، وعَمّار بن ياسر وأبوه وأمه سُمَية وأخوه عبد الله رضى الله عنهم، وغيرهم، وغيرهم ولقد اشترى أبو بكر الصديق رضى الله عنه عدداً كبيراً ممن كانوا يعذبون فى الله .. وفى ذلك يُرْوَىَ أن أبا قحافَة قال لابنه أبى بكر: يا بُنَىّ أراك تعتق رقاباً ضعافاً، فلو أنك فعلت ما فعلت فأعتقت رجالاً جُلداء يمنعونك ويقومون دونك؟ فقال له أبو بكر: ياأبت إنما أريد ما أريد لله عز وجل.. وفى ذلك نزل قوله تعالى :

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ (الليل)

يروى أن عَمّار بن ياسر رضى الله عنه قال شعراً يذكر فيه بلالاً وأصحابه الذين أعتقهم أبو بكر مما كانوا فيه من البلاء من ذلك قوله:

جزى الله خيراً عن بلال وصحبه
عنيقاً وأخزىَ فاكهاً وأبا جَهْلِ
عَشَية هَما فى بلال وَصَحْبه
ولم يَحْذرا ما يَحْذَرُ المرءُ ذو العَقْل
بتوحيده رَب الأنامِ وقوله
شهدتُ بأن الله ربى على مَهْلِ
فإن تقتلونى تقتلونى ولم أكُنْ
لأشركَ بالرحمن من خيفَةِ القَتْلِ





أول هجرة فى الإسلام

لما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يظْلَمُ عنْده أحد، وهى أرضُ صدْق، حتى يجعل الله تعالى لكم فرجاً مما أنتم فيه. فخرج عند ذلك المسلمون من أصحابَ رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً إلى الله تعالى بدينهم فكانت أولَ هجرةٍ فى الإسلام.

كانت هجرة المسلمين الأولى فى شهر رجب سنة خَمْسٍ من مبعث رسول الله ﷺ.

كانوا نحو عشرة أو أكثر من ذلك قليلاً ما بين رجال ونساء. كان منهم عثمان بن عفان رضى الله عنه ومعه امرأته رقية بنت سيدنا رسول الله ﷺ . ولذلك يُروى عن أنَس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن عثمان لأولُ من هاجر بأهله بعد لوط ومنهم عبد الرحمن بن عوف، وأبو حذيفة بن ربيعة ومعه امرأته سهلة بنت نهيل بن عمرو، والزبير ابن العوام، ومصعب بن عُمَيْر، وأبو سَلَمة عبد الأسد وامرأته أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة، وعثمان بن مظعون، وعامر بن ربيعة وامرأته ليلى بنت أبى حَتْمة وغيرهم.

ولم يكن عمرُ بن الخطاب مَعهم، إذ لم يكن قد أسلم بعد وكان من أشد الناس على المسلمين، وفى ذلك يُرْوَى عن ليلى بنت أبى حَتْمة قَولُها «كان عمر بن الخطاب من أشد الناس علينا فى إسلامنا، فلما تهيأنا للخروج إلى أرض الحبشة أتانا عمر بن الخطاب وأنا على بعيرى وأنا أريد أن أتوجه فقال لى: أين يا أم عبد الله ؟. فقلت: آذيتمونا فى ديننا، فنذهب فى أرض الله حيث لا نؤذَى. فقال: صحبكم الله . ثم ذهب فجاء زوجى عامر بن ربيعة فأخبرته بما رأيت من رِقَّة عمر، فقال: تُرْجِين أن يُسْلم؟.

والله لا يُسْلِم حتى يُسْلم حمارُ الخَطَاب!!

خرج المهاجرون متسللين سراً حتى أتَوْا الشُّعْيبيّة منهم الراكب ومنهم الماشى، وهيأ الله للمسلمين ساعة جاءوا سفينتين للتجار حملوهم فيهما بنصف دينار، وعلمت قريش بذلك فخرجت فى آثارهم حتى جاءوا البحر حيث ركبوا، فلم يدركوا منهم أحداً وكانت قريش تقول: لو ذكر محمدٌ آلهتنا بخير مَرَرْناهُ وأصحابه، ولكنه لا يذكر من خالفه من اليهود والنصارى بمثل ما يذكر به آلهتنا من الشتم.





خرج المهاجرون إلى أرض الحبشة من مكة فى رجب سنة خمسٍ من بعثة رسول الله ﷺ فأقاموا شعبان ورمضان ثم عادوا فى شوال من نفس السنة.

هم إذن لم يمكثوا طويلاً فى الحبشة. قد يسأل سائل: إذن لماذا تجشموا مشقة السفر؟. ذلك له قصة، فلقد بلغ المسلمين الذين بأرض الحبشة أن أهل مكة قد أسلموا حتى إن الوليد بن المغيرة وأباأميمة قد سجدا خلف النبى ﷺ. فقال القوم: فمن بقى بمكة إذا أسلم هؤلاء، وإن عشائرنا أحبُّ إلينا، فخرجوا راجعين حتى إذا كانوا دون مكة بساعةٍ من نهار لَقَوا ركباً من كنانة فسألوهم عن قريش وعن حالهم فقال لهم الركب: ذكر محمد آلهتهم بخير فتابعه الملأ ثم رجع فعاب آلهتهم وعادوا له بالشر، فتركناهم على ذلك.

عندئذ ائتمر القوم بالرجوع إلى الحبشة، لكنهم قالوا: قد بَلَغْنا نَدْخل فننظر ما فيه قريش ثم نرجع. ودخلوا لكن أحداً منهم لم يدخل إلا بعد أن استجار بأحد أو مستخفياً إلا ابن مسعود فإنه مكث يسيراً ثم رجع إلى أرض الحبشة.

لما قدم المسلمون والمهاجرون من الحبشة ودخلوا مكة اشتد عليهم قومهم وسطت عليهم عشائرهم ولقوا منهم أذى شديداً وكان من بينهم عثمان بن مظعون الذى كان يغدو ويروح فى أمان الوليد بن المغيرة، فلما رأى عثمان بن مظعون ما فيه أصحاب رسول الله ﷺ من البلاء وهو يغدو ويروح فى أمان قال: والله إن غدوى ورواحى آمناً بجوار رجل من أهل الشرك وأصحابى وأهل دينى يلقوْن من البلاء والأذى فى الله ما لا يصيبنى لنَقص كبير فى نفسى.

ثم مشى عثمان إلى الوليد بن المغيرة فقال له: يا أبا عبد شمس، وَفَتْ ذِمّتُك، وقَد رَدَدْتُ إليك جوارَكَ.

فقال له الوليد: لم يا ابن أخى لعله آذاك أحد من قومى؟

فقال عثمان: لا ولكنى أرضى بجوار الله عز وجل ولا أريد أن أستجير بغيره.

قال الوليد بن المغيرة: إذن فانطلق إلى المسجد فاردد علىّ جِوارى علانية كما أجَرْتُك علانية.

فانطلقا حتى أتيا إلى المسجد فقال الوليد: هذا عثمان قد جاء يرد علىّ جوارى.

فقال عثمان بن مظعون: صَدَق قد وَجَدْته وَفِياً كريمَ الجوار ولكننى قد أحببت ألا





أستجير بغير الله عزٌ وجَل، فقد رددت عليه جواره.

وانصرف عثمان بن مظعون، وكان لَبيد بن ربيعة بن مالك فى مجلس من قريش يُنشدهم شعْراً قبل إسلامه، فجلس عُثمان معهم فقال لبيد:

ألا كلُّ شىء ما خلا الله باطل

قال عثمان بن مظعون: صَدَقْت.

قال لبيد: وكلُّ نعيم لا محالة زائل

فقال عثمان بن مظعون: كذبت نعيم الجنة لا يزول.

فصاح لبيد: يا معشر قريش والله ما كان يؤذى جليسكم، فمتى حدث هذا ؟

فقال رجل من القوم: إن هذا سفيهٌ فى سفَهاءَ معه قد فارقوا ديننا فلا تجدَنٌ فى نفسك من قوله.

فرد عليه عثمان حتى تأزم أمرهما فقام ذلك الرجل فلطم عين عثمان حتى ورمت، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما حَلّ بعثمان فقال له الوليد: أما والله يا ابن أخى إن كانت عَيْنُك عما أصابهما لغنية ولقد كنت فى ذمة منيعة.

فقال عثمان بن مظعون: بل والله إن عَيْنىَ الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها فى الله عز وجل، وإنى لفى جوار من هو أعزُّ منك وأقدَرُ يا أبا عبد شمس.

فقال الوليد بن المغيرة: هلم يا ابن أخى إن شئت إلى جوارك فعد.

فرد عثمان بن مظعون قائلاً: لا والله لا أعود.

ما أروع إيمان هؤلاء القوم، وما أكثر ما تحملوا فى سبيل دين الله .

لقد كان إيمانهم لا يخالطه شائبة. وتحملوا فى سبيل الدعوة فوق ما يطيقه البشر.

كان من بين المهاجرين الذين عادوا من الحبشة أبو سَلمَة بن عبد الأسد وقد أجاره أبو طالب عمُّ النبى ﷺ، فلما أجاره أبو طالب مشى إليه رجال من بنى مخزوم فقال له قائلهم: يا أبا طالب قد منعت ابن أخيك محمداً فمالك ولصاحبنا تمنعُه؟ قال أبو طالب: إنه استجار بى وهو ابن أختى، وإن أنا لم أمنع ابن أختى لم أمنع ابن أخى فقام أبو لهب فقال: يا معشر قريش، والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ، ما تزالون توثبون عليه فى جواره من بين قومه، والله لتنتهن عنه أو لنقومن فى كل ما قام فيه حتى يبلُغ ما أراد.

فقال له القوم: بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة. وكان أبو لهب ولياً وناصراً لهم على رسول الله ﷺ فأبقوا على ذلك.





إنه موقف غريب من أبى لهب. لكن هذا الموقف لم يكن نُصرةً لمحمد ودعوته،ولكنه كان دفاعاً عن أخيه أبى طالب لأنه بقى على موقفه المناوئ لرسول الله ﷺ، ولم يلن قلبه أبداً.

إسلام عمر

كان إسلام عمر بن الخطاب عقب الهجرة الأولى إلى الحبشة، وفى ذى الحجة سنة ست من مبعث النبى ﷺ.

روى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قصة إسلامه فقال: كنت أشد الناس على رسول الله ﷺ ، وذات يوم قال أبو جهل: يا معشر قريش إن محمداً قد شتَمَ آلهتكم وسفَّه أحلامكم، وزعم أن من مضى من آبائكم يتهافتون فى النار، ألا ومن قتل محمداً فله علىّ مائة ناقة حمراء وسوداء، وألف أوقية من فضة.

ويمضى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيقول:فخرجت متقلداً السيف متنكباً كنانتى أريد النبى ﷺ، فلقينى رجل من قريش، وكان قد أسلم، وكان يُخفى ذلك خوفاً من قومه فقال: أين تذهب يا ابن الخطاب؟

فقال له عمر: أريد هذا الصابئ الذى فرّق أمر قريش وسفه أحلامهما، وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله..

فقال له الرجل: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على وجه الأرض وقد قتلت محمداً؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟

قال عمر: وأىُّ أهل بيتى؟

فقال له: الرجل ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمر وأختك فاطمة بنت الخطاب. فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه فعليك بهما.

ولكن لماذا قال له الرجل ذلك وقد كان مُسلماً، وهو يعرف أن عمر سوف يؤذى أخته وزوجها لإسلامهما؟.. لقد فعل الرجل ذلك ليصرف عمر عن أذى رسول الله ﷺ.

فماذا فعل عمر؟

رجع عمر إلى أخته وختنه وكان رسول الله ﷺ إذا أسلم بعض من لا شىء له ضم الرجل والرجلين إلى الرجل ينفق عليه وكان قد ضم رجلين من أصحابه إلى زوج أخت عمر فقرع عمر عليهم الباب وعندهم خباب بن الأرت معه صحيفة فيها سورة طه





يقرئهما إياها، فلما أحسوا بعمر، تغيب خباب فى مخدع لهم أو فى بعض البيت وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فحملتها تحت فخذها وقد سمع عمر حين دنا من البيت قراءة خباب عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الهيمنة التى سمعت؟. فقالا له: ما سمعت شيئاً، قال: بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه.

ثم بطش عمر بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته بنت الخطاب لتكفه عن زوجها فضربها فشجها فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه: نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك.

فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع.. ويا سبحان الله، عُمر يرق قلبه إنها إرادة الله الذى شاء سبحانه أن يعز الإسلام بعمر، لقد ندم عمر على ما صنع عندما رأى ما بأخته من الدم، وقال: لأخته أعطنى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرأون آنفاً انظر ما هذا الذى جاء به محمد.

فلما قال ذلك قالت له أخته: إنا نخشاك عليها.

قال: لا تخافى. وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها، فلما قال ذلك قالت وكأنها طمعت فى إسلامه: يا أخى أنت نجس على شركك وإنه لا يمسُّه إلا طاهر.

فقام عمر فاغتسل فأعطته الصحيفة وفيها سورة طه فقرأها فلما قرأ صدراً منها قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه.. وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

كل ذلك وخباب ما زال مختبئاً فلما سمع الشهادة من عمر خرج إليه فقال له: يا عمر والله إنى لأرجو أن يكون الله تعالى قد خصك بدعوة نبيه، فإنى سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام، أو بعمر بن الخطاب.. فالله الله يا عمر.

عندئذ قال له عمر: دلنى يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم.

لقد دخل الإسلام قلب عمر، ولم يعد خباب يخشى أن يدله على النبى ﷺ ومن أجل ذلك أجاب خباب على عمر بقوله: هو فى بيته عند الصفا معه نفر من أصحابه.

أخذ عمر سيفه فتوشحه ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فضرب عليهم الباب فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فنظر من خلل الباب فرجع وهو



فزع وقال: يا رسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف.

فهل يأذنون له بالدخول وهم لم يبلغهم بعد أن عمر قد نطق بالشهادتين؟

إن ذلك لم يفزع الرسول ﷺ ولا أصحابه، فلقد قال حمزة بن عبد المطلب للرجل الذى رأى عمر من خلل الباب: ائذن له فإن كان يريد خيراً بذلنا له، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه وقال رسول الله ﷺ للرجل أيضاً: إئذن له فإن يرد الله به خيراً يَهده.

فأذن له الرجل وفتحوا له وأخذ رجلان بعضديه حتى دنا من رسول الله ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام: أرسلوه.

فأرسلوه. فنهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه فى الحجرة فأخذ بحجزته أو بجمع ردائه، ثم جذبه جذبة شديدة وقال له: ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أراك أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة.

فقال عمر: يا رسول الله جئت لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله.

فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف بها أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم، فكبروا تكبيرة سمعت بطرق مكة وتفرقوا من مكانهم وقد عزوا فى أنفسهم حين أسلم عمر وكان حمزة قد أسلم قبله.

لقد عرف المسلمون أن عمر وحمزة سيمنعان رسول الله ﷺ، وسوف ينتصف المسلمون بهما من عدوهم. ولعل أبلغ تصوير للأثر الذى أحدثها إسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه، والقوة التى أضافها إسلامه للمسلمين ما يرويه ابن مسعود رضى الله عنه فى قوله: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر بن الخطاب.

وقوله أيضاً: إن إسلام عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا وما نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر فلما أسلم عمر قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه.

وكان إسلام عمر مرحلة فاصلة فى تاريخ الدعوة الإسلامية لما جبل عليه عمر بن الخطاب من الشجاعة والقوة. إن عمر بن الخطاب، لم يخش من القوم وإنما جهر بإسلامه، وفى ذلك يروى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قوله: لما أسلم عمر قال: أى قريش أنقل للحديث؟ فقيل له: جميل بن عمر الجمحى. قال عبد الله: فغدا عليه وغدوت معه





أتبع أثره وأنظر ماذا يفعل حتى جاءه فقال له: أعلمت يا جميل أنى أسلمت ودخلت فى دين محمد؟ قال ابن عمر: فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه فتبعه عمر واتبعت أبى حتى إذا قام على باب المسجد خرج جميل بأعلى صوته والقوم فى أنديتهم حول الكعبة فقال: يا معشر قريش ألا إن ابن الخطاب قد صبأ وعمر يقول من خلفه كذب ولكنى أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فثار القوم إليه وما برح يقاتلهم ويقاتلونه فبينا هو كذلك إذ أقبل شيخ من قريش حتى وقف عليهم فقال: ما شأنكم؟ قالوا: صبأ عمرُ فقال لهم الشيخ: رجل اختار لنفسه أمراً فما تريدون منه، أترون بنى عدى بن كعب يسلمون لكم صاحبكم خلوا عن الرجل.

يقول عبد الله بن عمر: فوالله كأنما كانوا ثوباً كشط عنه فقلت لأبى بعد أن هاجر إلى المدينة: يا أبى من الرجل الذى زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك؟ قال: ذاك أى بنى العاص بن وائل السهمى.

وكان ذلك الرجل مشركاً ومات مشركاً.

حصار المسلمين

لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد زاد عددهم، وأن عمر بن الخطاب قد أسلم وكان رجلاً ذا شكيمة، فامتنع به وبحمزة أصحاب رسول الله ﷺ، وجعل الإسلام يفشو فى القبائل، أجمعوا رأيهم واتفقوا على قتل رسول الله ﷺ وقالوا: قد أفسد علينا أبناءنا ونساءنا، فقالوا لقومه: خذوا منا دية مضاعفة، وليقتله رجل من غير قريش ويريحنا وتريحون أنفسكم.

فأبى قومه بنو هاشم، وظاهرهم فى ذلك بنو عبد المطلب بن عبد مناف.

عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد منعه قومه، وأن خطتهم لقتله مقضى عليها بالفشل فهل يسكتون على ذلك؟

ظلت قريش تتشاور فى الأمر، وتقلب النظر بحثاً عن وسيلة يناوئون بها رسول الله ﷺ وأجمع المشركون من قريش أمرهم على منابذة بنى هاشم وبنى عبد المطلب وإخراجهم من مكة إلى الشعب لأنهم منعوا رسول الله ﷺ واتفقوا على أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى عبد المطلب على ألا ينكحوهم ولا ينكحوا إليهم ولا يبيعوهم





شيئاً ولا يبتاعوا منهم، ولا يقبلوا منهم صلحاً، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل وكتبوا صحيفة ثم تعاهدوا وتعاقدوا على ذلك. ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم ومنعوا عنهم الأسواق ولم يتركوا طعاماً ولا إداماً ولا بيعاً إلا بادروا إليه واشتروه دونهم.

لما فعلت قريش ذلك انحازت بنو هاشم وبنو عبد المطلب إلى أبى طالب فدخلوا معه فى شعبه مؤمنهم وكافرهم.وطبيعى أن ينحاز المؤمنون إلى أبى طالب فكيف بالمشركين منهم؟

لقد انحاز المؤمنون يدفعهم إيمانهم بالدين الجديد، وحبهم لرسول الله ﷺ ، أما المشركون من بنى هاشم وبنى عبد المطلب فقد انحازوا إليهم تدفعهم إلى ذلك الحمية فماذا كان موقف أبى لهب؟

خرج أبو لهب من بنى هاشم وانحاز إلى قريش مظاهراً لهم، وحين فارق قومه وظاهر قريشاً عليهم لقى هنداً بنت عتبة بن ربيعة فقال لها: يا بنت عتبة، هل نصرت اللات والعُزى وفارقت من فارقها وظاهر عليها؟

فقالت له هند: نعم جزاك الله خيراً يا أبا عتبة.

أقام المسلمون فى الشعب ثلاث سنين حتى جهدوا لا يصل إليهم شىء إلا سراً مستخفياً به من أراد صلتهم من قريش.

وذات يوم لقى أبو جهل، حكيم بن حزام ومعه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة وهى مع رسول الله ﷺ فى الشعب فتعلق به وقال: أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم، لا تذهب أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة.

فقال أبو البخترى بن هشام بن الحارث: طعام كان لعمته عنده أفتمنعه أن يأتيها بطعامها؟ خل سبيل الرجل.

فأبى أبو جهل، وظل يتحرش بحكيم وبالغلام، فما كان من أبى البخترى إلا أنه أخذ بلحيى بعير فضربه به فشجه ووطئه وطئاً شديداً.

ولم يكن أبو البخترى مسلماً وإنما كان من المشركين، لكن الله سبحانه وتعالى سلطه على أبى جهل وتلك هى حكمة الله.

يا سبحان الله، حقاً إن الله يدافع عن الذين آمنوا ولقد كان أبو طالب طوال مدة





إقامتهم فى الشعب يأمر رسول الله ﷺ، فيأتى فراشه كل ليلة حتى يراه من أراد به شراً، فإذا نام الرسول عليه الصلاة والسلام، أمر أبو طالب أحد بنيه أو إخوته أو بنى عمه فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ، وأمَر رسول الله ﷺ أن يأتى بَعْضَ فرشهم فيرقد عليه وظلوا على ذلك حتى أتموا فى الشعب ثلاث سنين.

وبعد أن مضت ثلاث سنوات على هذا الموقف ورسول الله ﷺ فى الشعب مع أبى طالب والمسلمين ومعهم بنو هاشم وبنو عبدالمطلب بن عبد مناف، تلاوم رجال من بنى عبد مناف ومن قصى، ورجال من سواهم من قريش قد ولدتهم نساء من بنى هاشم، ورأوا أنهم قد قطعوا الرحم وجانبوا الحق، فاجتمع أمرهم على نقض ما تعاهدوا عليه من العذر والبراءة منه.

ولكن هل ظلت صحيفة قريش التي تعاهدوا فيها على الغدر والقطيعة، وعلقوها فى جوف الكعبة، هل ظلت تلك الصحيفة على حالها ؟

لقد بعث الله تعالى على صحيفتهم (الأرضة) فأكلت أو لحست ما فى الصحيفة من عهد وميثاق بينما أبقت على اسم الله ...وأطلع الله سبحانه وتعالى رسوله على ذلك، فذكره رسول الله ﷺ لعمه أبى طالب.. فقال عمه أبو طالب: أربك أخبرك بهذا ؟

فقال رسول الله ﷺ: نعم، فقال له أبو طالب:ـ لا والثواقب ما كذبتنى ثم انطلق أبو طالب بعصابة من بنى هاشم وبنى عبدالمطلب حتى أتوا المسجد وهو حافل ببنى قريش، فلما رأتهم قريش فى جماعة أنكروا ذلك وظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء ليسلموا رسول الله ﷺ إلى قريش، فتكلم أبوطالب فقال «جرت أمور بيننا وبينكم لم نذكرها لكم، فأتوا بصحيفتكم التى فيها مواثيقكم فلعله أن يكون بيننا وبينكم صلح» فأتوا بصحيفتهم لا يشكون أن رسول الله ﷺ سوف يدفع إليهم فوضعوها بينهم وقال قائلهم لأبى طالب «قد آن لكم أن ترجعوا عما أحدثتم علينا وعلى أنفسكم فإنما قطع بيننا وبينكم رجل واحد جعلتموه خطراً لهلكة قومكم وعشيرتكم وفسادهم».

فقال أبوطالب: ـ «إنما أتيتكم فى أمر هو نصف بيننا وبينكم إن ابن أخى أخبرنى ولم يكذبنى أن هذه الصحيفة التى فى أيديكم قد بعث الله تعالى عليها دابة فأبقت اسم الله وأكلت غدركم وتظاهركم علينا بالظلم فإن كان كما يقال فلا والله لا نسلمه حتى نموت من عند آخرنا وإن كان الذى يقول باطلاً دفعنا إليكم صاحبنا فقتلتم أو استحييتم»



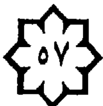


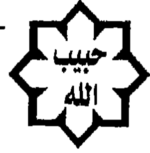
فقال قائلهم:ـ «قد رضينا بالذى تقول».

فلما فتحوا الصحيفة وجدوا الصادق المصدوق ﷺ قد أخبر بخبرها قبل أن تفتح ولما رأت قريش صدق ما جاء به أبوطالب عن رسول الله ﷺ قال قائلهم:ـ «هذا سحر ابن أخيك فرد عليهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب بقول قائلهم: «إن أولانا بالكذب والسحر غيرنا فإنّا نعلم أن الذى اجتمعتم عليه من قطيعتنا أقرب إلى الجبت والسحر» وقال أبوطالب:ـ «يا معشر قريش علام نحصر ونحبس وقد بان الأمر وتبين أنكم أولى بالظلم والقطيعة والإساءة.

ثم دخل أبوطالب وأصحابه بين أستار الكعبة وقال «اللهم انصرنا على من ظلمنا وقطع أرحامنا واستحل ما يحرم عليه منا» وانصرفوا بعد ذلك إلى الشعب وأنشد أبوطالب قصيدة تعوذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها وأخبر القوم أنه غير مُسَلّم رسول الله ﷺ أبداً حتى يهلك دونه يقول أبو طالب فى القصيدة:

ولما رأيت القوم لا ود عندهم
وقد قطعوا كل العرى والوسائل
صبرت لهم نفسى لسمراء سمحة
وأبيض غضب من تراب المعاول
وأحضرت عند البيت رهطى وإخوتى
وأمسكت من أثوابى بالوصائل
أعوذ برب الناس من كل طاعن
علينا بسوء أو ملحن بباطل
وبالبيت حق البيت من بطن مكة
وبالله إن الله ليس بغافل
فهل بعد هذا من معاذ لعائذ
وهل من معيذ يتق الله عادل
لعمرى لقد كلفت وجداً بأحمد
وإخوتى دأب المحب الواصل
فلا زال فى الدنيا جمالاً لأهلها
وزينا على رغم العدو المخاتل





لما اشتد أذى المشركين فى مكة للمسلمين الذين كانوا قد هجروها إلى الحبشة وعادوا منها إلى مكة، أذن رسول الله ﷺ لهم بالخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية، فلما نزلوا أرض الحبشة أمنوا على دينهم وعبدوا الله تعالى لا يؤذون ولا يسمعون شيئاً يكرهونه.

لما بلغ قريشاً حسن استقبال النجاشى للمسلمين وأنه أمنهم على دينهم ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى الحبشة رجلين جلدين، وأن يهدوا للنجاشى هدايا مما يستطرف من متاع مكة..

فمن من الرجال اختارت قريش لهذه المهمة؟

تروى كتب السيرة أن هذين الرجلين كانا عمارة بن الوليد وعمرو بن العاص وقد أمرهما قومهما أن يدفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن يكلما النجاشى فيهم، ثم يقدما للنجاشى هداياه ويسألاه أن يسلم المسلمين إليها قبل أن يكلمهم.

ولم يبق من بطارقة النجاشى بطريق إلا دفعا له هديته قبل أن يدفعا إلى النجاشى هداياه ويكلماه فى الأمر، وكانا إذا أتيا إلى بطريق من البطارقة قال له قائلهما:- «إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا دينكم وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه أن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى وأعلم بما عابوهم فيه».

ولكن هل استجاب لهم البطارقة؟

نعم فقد كان المبعوثان من قريش قد استمالاهم بالهدايا التى قدماها لهم، فلما دخلا على النجاشى سجدا له وقدما له هداياهما فقبلها ثم قالا له:-

«أيها الملك إن نفراً من بنى عمنا سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم جاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا إليك منهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم لتردهم عليهم وهم أعلى وأعلم بهم وبما عابوا عليهم وبما غيبوهم فيه» وكان البطارقة حضوراً فى المجلس فقال قائلهم:-

«صدقا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم».





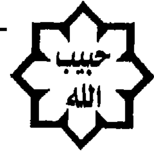
عندئذ قال النجاشي «فأين هم؟».. فقال قائلهم «في أرضك أيها الملك» فرد النجاشي غاضباً «لا والله إذاً لا أسلمهم إليهما ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا في بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان من أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم وإن كانوا غير ذلك منعتهم منهم وأحسنت جوارهم ما جاوروني اذهبوا فادعوهم إليّ، أستمع إليهم».

ولما جاء المسلمين رسول النجاشي يدعوهم إليه اجتمعوا به فقال قائلهم:ـ «ماتقولون للرجل إذا جئتموه؟» قالوا:ـ «نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا كان في ذلك ما هو كائن» فقال جعفر بن أبي طالب وكان فيهم «أنا خطيبكم اليوم».

دعا النجاشي أساقفته فوقفوا من حوله ودخل جعفر ومعه المسلمون فقال له أحد الأساقفة: ما لك لا تسجد للملك؟ فقال جعفر «إنا لا نسجد إلا لله عز وجل» فقال النجاشي: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل؟

فقال جعفر:ـ «أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وقد أمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله تعالى فعبدنا الله تعالى وحده ولم نشرك به شيئاً وحرمنا ما حرم الله علينا وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا وعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك».

فقال النجاشي:ـ «وهل معك مما جاء به من شيء؟» فقال جعفر «نعم» ولما طلب منه



النجاشى أن يقرأه له قرأ بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿ كهيعص ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ ﴾ (مريم)

فما زال جعفر يقرأ حتى بكى النجاشى حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا صحفهم حين سمعوا ما يتلى عليهم.

قال النجاشى: إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ثم التفت النجاشى إلى مبعوثى قريش وقال: أعبيد هم لكم؟ قال له القوم «لا»، قال النجاشى: أفلكم عليهم دين؟ قال الرجال «لا». فقال النجاشى: انطلقوا فوالله لا أسلمهم إليكم أبداً.

لما خرجوا من عند النجاشى قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غداً بما أستأصل به خفراءهم، فقال له عمارة: لا تفعل فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا. فقال عمرو بن العاص: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد.

لما غدا عمرو إلى النجاشى قال له: أيها الملك إنهم يقولون فى عيسى قولاً عظيماً فاسألهم عما يقولون فيه، فأرسل إليهم النجاشى ليسألهم عنه.. فاجتمع المسلمون ليتشاوروا فى الأمر وقال قائلهم: ماذا تقولون فى عيسى بن مريم إذا سألكم عنه؟ فقال له آخر: نقول والله ما قال الله تعالى وما جاء به نبينا كائن فى ذلك ما هو كائن، فقال جعفر: لا يتكلم أحد فأنا خطيبكم.

لما دخل المسلمون على النجاشى إذا هو جالس فى مجلسه وعمرو بن العاص عن يمينه وعمارة عن شماله والقسيسون حوله جلوس فقال النجاشى لجعفر: ماذا تقولون فى عيسى بن مريم؟

قال جعفر:ـ «نقول فيه الذى جاء به نبينا، نقول: هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول» فقال النجاشى: يا معشر القسيسين والرهبان والله ما يزيدون على الذى فيه. وأنتم أيها القوم مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده أشهد أنه رسول الله وأنه الذى نجد فى الإنجيل وأنه الرسول الذى بشر به عيسى بن مريم، انزلوا حيث





شئتم والله لولا ما أنا فيه من الملك لآتينه حتى أكون أنا الذى أحمل نعليه اذهبوا فأنتم آمنون، من سبكم غرم ومن شتمكم غرم فما أحب أن لى جبلاً من ذهب وأنى آذيت رجلاً منكم» وأمر النجاشى لهم بطعام وكسوة وقال لحاشيته«ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى بها فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى فأخذ الرشوة فيه وما أطاع الناس فى فأطيعهم فيه».

أقام المسلمون عند النجاشى بخير دار مع خير جار حتى إذا جاء رجل من الحبشة ينازع النجاشى فى ملكه حزن المسلمون لذلك حزناً شديداً تخوفاً من أن يظهر ذلك الرجل على النجاشى فيأتى رجل لا يعاملهم معاملة النجاشى لهم وسار رجل إلى النجاشى وبينهما عرض النيل فقال أصحاب رسول الله ﷺ«من رجل ينطلق حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتينا بالخبر» فقال الزبير بن العوام: أنا، وكان الزبير من أحدث القوم سناً فنفخوا له قربة فجعلها فى صدره وخرج إلى ناحية النيل التى عندها يلتقى القوم ثم انطلق حتى حضر فى المكان والموعد المحددين وبينما المسلمون يدعون للنجاشى بالظهور على عدوه والتمكين له فى بلاده إذ طلع عليهم الزبير بن العوام يسعى وهو يلمع من ابتلاله بالماء وهو يقول لهم: أبشروا فقد ظهر النجاشى وأهلك الله عدوه وفرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً.

عن عائشة رضى الله عنها قالت «لم أعقل أبوى قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ فى النهار بكرة وعشية».

كان رسول الله ﷺ يحب أبا بكر حباً شديداً، وكان أبو بكر من أقرب المقربين إليه ولأن رسول الله ﷺ كان يحبه فقد أذن له بالهجرة إلى الحبشة عندما ابتلى المسلمون واشتد عليهم إيذاء الكفار..

وعندما خرج أبو بكر مهاجراً إلى الحبشة سار حتى بلغ موقعاً يقال له (برك الغماد) فلقيه ابن الدغنة وهو من سادة القوم فى ذلك الحين فقال له «أين تريد يا أبا بكر؟» فقال له أبو بكر «أخرجنى قومى فأريد أن أسيح فى الأرض فأعبد ربى عز وجل»، فرد ابن الدغنة قائلاً «إن مثلك يا أبا بكر لا يخرج، إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار فارجع واعبد ربك ببلدك..».



وكان مع أبى بكر الحارث بن خالد فقال أبو بكر «فإن معى رجلاً من عشيرتى» فقال ابن الدغنة «دعه فليمض لوجهه وارجع أنت إلى عيالك» فقال أبو بكر:ـ «فأين حق المرافق؟» فقال له الحارث: أنت فى حل فامض فإنى ماضٍ لوجهى، ومضى معه الحارث حتى صار إلى الحبشة أما أبو بكر فقد رحل وارتحل معه ابن الدغنة فطاف ابن الدغنة فى أشراف كفار قريش فقال: إن أبا بكر لا يخرج مثله، أتخرجون رجلاً يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقرى الضيف ويعين على نوائب الحق؟

وسمعت قريش كلام ابن الدغنة وأنفذت جواره وأمنوا أبا بكر وقالوا لابن الدغنة: مر أبا بكر فليعبد ربه فى داره وليصل فيها وليقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا.. وطلب ابن الدغنة من أبى بكر أن يفعل ذلك.

لبث أبو بكر يعبد ربه فى داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ فى غير داره ثم بدا لأبى بكر أن يبتنى مسجداً بفناء داره فكان يصلى فيه فتهافتت عليه نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون به وينظرون إليه وكان أبو بكر رجلاً بكاءاً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين وأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا له «إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه فى داره فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن الصلاة والقراءة وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فأته فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه فى داره فعل وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد عليك ذمتك فإنا قد كرهنا أن نخفرك ولسنا مقرين لأبى بكر الاستعلان وأتى ابن الدغنة إلى أبى بكر وقال:ـ «قد علمت الذى عاقدت لك عليه فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترجع إلى ذمتى فإنى لا أحب أن تسمع العرب أنى أخفرت فى رجل عقدت له» وقال أبو بكر «فإنى أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله تعالى».

وحين خرج أبو بكر رضى الله عنه من جوار ابن الدغنة لقيه واحد من سفهاء قريش وهو متوجه إلى الكعبة فحثا على رأسه تراباً فمر بأبى بكر الوليد بن المغيرة أو العاص ابن وائل.. فقال له أبو بكر: ألا ترى ما يصنع هذا السفيه؟

فقال له: أنت صنعت هذا بنفسك؟



فقال أبو بكر: أى رب ما أحلمك .. أى رب ما أحلمك.. أى رب ما أحلمك.

ونعود مرة أخرى إلى الصحيفة التى تعاهدت عليها قريش وعلقتها بالكعبة واتفقت فيها على مقاطعة بنى هاشم وبنى عبدالمطلب فبينما كان المسلمون فى الشعب كان يصلهم نفر من قريش ومن هؤلاء هشام بن عمرو بن الحارث رضى الله عنه، فقد كان يدخل عليهم أحمالاً من الطعام، ولما علمت قريش بذلك غالظته وهمت به لولا أن قال لهم أبوسفيان بن حرب: دعوه إنه رجل وصل أهل رحمه، أما إنى أحلف بالله لو فعلنا مثل ما فعل كان أحسن بنا.

مشى هشام بن عمرو إلى زهير بن أبى أمية وأمه عاتكة بنت عبدالمطلب فقال له: «يا زهير أرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمت لا يتبايعون ولا يبتع منهم ولا ينكحون ولا ينكح إليهم، أما إنى أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبى الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه» فرد زهير بن أبى أمية «ويحك يا هشام فماذا أصنع إنما أنا رجل واحد والله لو كان معى رجل آخر لقمت فى نقضها» فقال هشام بن عمرو «قد وجدت رجلاً، إنه أنا» فقال زهير «بغينا رجلاً ثالثاً».

وذهب هشام إلى المطعم بن عدى وقال له: يا مطعم أرضيت أن يهلك بطنان من بنى مناف وأنت شاهد على ذلك، موافق لقريش فيه؟ أما والله لئن مكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها فيكم سراعاً وقال مطعم: ويحك فماذا أصنع إنما أنا رجل واحد؟ قال هشام: قد وجدت ثانياً إنه أنا، قال مطعم: ابغنا ثالثاً، فقال هشام: إنه زهير بن أبى أمية فقال مطعم: ابغنا رابعاً..

ثم ذهب هشام إلى أبى البخترى فقال له مثل ما قال للمطعم بن عدى، فقال أبو البخترى: وهل أحد يعين على هذا الأمر؟ قال هشام: نعم إنه زهير بن أمية والمطعم بن عدى وأنا معك، قال أبو البخترى: ابغنا خامساً.

ثم ذهب هشام إلى زمعة بن الأسود فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم، فقال زمعة: وهل على هذا الأمر الذى تدعونى إليه من أحد؟، قال هشام: نعم أنا وزهير بن أبى أمية





والمطعم بن عدى وأبو البخترى.

واجتمع الخمسة ليلاً بأعلى مكة وأجمعوا أمرهم وتعاهدوا على القيام فى نقض الصحيفة حتى ينقضوها، وقال زهير:ـ «أنا أبدأكم فأكون أول من يتكلم» فأقبل على الناس وقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباعون ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة» فقال أبو جهل وكان فى ناحية المسجد «كذبت والله لا تشق» فقال زمعة بن الأسود «أنت والله أكذب ما رضينا كتابتها حين كتبت» فقال أبو البخترى «صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به» فقال المطعم «صدقتما وكذب من قال غير ذلك ونحن نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها »وقال هشام بن عمرو مثل ذلك فقال أبوجهل «هذا أمر قضى بليل» فقام المطعم بن عدى إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا «بسمك اللهم».

قدم الطفيل بن عمرو الدوسى مكة ورسول الله ﷺ بها وكان لم يزل بعد على دين الجاهلية فمشى إليه رجال من قريش وكان الطفيل رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً وأرادوا أن يحذروه من رسول الله ﷺ فقال له قائلهم:ـ «يا طفيل إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد اشتد علينا أمره وفرق جماعتنا وشتت أمرنا وإنما قوله كالسحر يفرق بين المرء وأبيه وبين الرجل وأخيه وبين الرجل وزوجته وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما دخل علينا فلا تكلمه ولا تسمع منه».

بعد أن سمع الطفيل بن عمرو من قومه ما سمع أجمع أمره على ألا يسمع شيئاً من محمد ﷺ ولا يكلمه بل بلغ به الأمر أن حشى أذنيه بقطع من القماش حتى لا يسمع منه شيئاً يقول الطفيل بن عمرو الدوسى «غدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى عند الكعبة فجئت قريباً منه فأبى الله تعالى إلا أن يسمعنى بعض قوله فسمعت كلاماً حسناً فقلت فى نفسى: إنى لرجل لبيب شاعر ما يخفى علىّ الحسن من القبيح، فماذا يمنعنى من أن أسمع من هذا الرجل ما يقول فإن كان الذى يأتى به حسناً قبلت وإن كان قبيحاً تركت فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ فتبعته فقلت إن قومك قالوا لى كذا وكذا وإنى شاعر فأسمع ما أقول» قال الرسول ﷺ: هات فأنشده الطفيل فقال له الرسول ﷺ وأنا أقول فأسمع «ثم قرأ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، باسم الله الرحمن





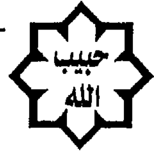
الرحيم، قل هو الله أحد.. إلى آخرها وقل أعوذ برب الفلق... إلى آخرها وقل أعوذ برب الناس... إلى آخرها ثم عرض عليه الإسلام، يقول الطفيل:ـ «فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ولا أمراً أعدل منه فأسلمت وقلت، يا نبى الله إنى امرؤ مطاع فى قومى وإنى راجع إليهم فداعيهم إلى الإسلام فادع الله أن يجعل لى آية تكون لى عوناً عليهم» فقال الرسولﷺ «اللهم اجعل له آية».

خرج الطفيل إلى قومه فلما نزل بهم أتاه أبوه فقال له الطفيل: إليك عنى يا أبت فلست منى ولست منك وإنى قد أسلمت وتابعت دين محمد، فقال أبوه: أى بنى فدينى دينك فقال الطفيل: فاغسل وطهر ثيابك.. واغتسل أبو الطفيل ثم جاء إليه فعرض على والده الإسلام، فأسلم، ثم أتته زوجته، فقال لها: إليك عنى فلست منك ولست منى، فقالت زوجته: ولم بأبى أنت وأمي، فرق بينى وبينك الإسلام ولقد تابعت دين محمد فقالت زوجته: فدينى دينك، قال الطفيل: إذن اذهبى فتطهرى.

وتطهرت زوجته ثم رجعت إليه فعرض عليها الإسلام فأسلمت، لكن أمه لم تسلم، ثم دعا قومه من قبيلة «دوس» إلى الإسلام فأبطأوا عليه، فجاء إلى رسول الله ﷺ وقال له «يا نبى الله إنه قد غلبنى على دوس الزنا فادعُ الله عليهم» فقال الرسول ﷺ: اللهم اهد دوساً وأت بهم وقال للطفيل: ارجع إلى قومك وارفق بهم، ورجع الطفيل إلى قومه ولم يزل بأرضهم يدعوهم إلى الإسلام حتى هاجر النبى ﷺ إلى المدينة ودارت معارك بدر وأحد والخندق فقدم الطفيل على رسول الله ﷺ بمن أسلم معه، والرسول عليه الصلاة والسلام بخيبر ونزل المدينة ومعه نحو ثمانين بيتاً من «دوس» ثم لحقوا بالرسول ﷺ بخيبر فأسهم لهم الرسول مع المسلمين.

حكاية الإراشى

قدم رجل بإبل له من منطقة تسمى إراش إلى مكة فابتاعها منه أبو جهل بن هشام ولم يدفع له أثمانها، فأقبل الرجل حتى وقف على نادى قريش ورسول الله ﷺ جالس فى ناحية المسجد فقال الرجل:ـ «يا معشر قريش من رجل يعيننى على أبى الحكم بن هشام فإنى غريب وابن سبيل وقد غلبنى على حقى» فقال له أهل ذلك المجلس وهم يشيرون إلى رسول الله ﷺ «أترى ذلك الرجل، اذهب إليه فهو يعينك عليه» قالوا ذلك



مستهزئين فهم يعلمون ما بين أبى جهل وبين الرسول ﷺ من العداوة، أقبل الإراشي حتى وقف على رسول الله ﷺ فذكر له ذلك، فقام معه الرسول وقال القوم لرجل ممن معهم: اتبعه فانظر ماذا يصنع.

وخرج رسول الله ﷺ حتى جاء دار أبى جهل فضرب عليه بابه، فقال أبو جهل «من هذا» قال رسول الله ﷺ «محمد فاخرج إلى» وخرج إليه أبو جهل وقد امتقع لونه فقال له رسول الله ﷺ «أعط هذا حقه» فقال أبو جهل وهو يرتعش خوفاً «نعم لا تبرح حتى أعطيه الذى له» ودخل أبو جهل ثم خرج إليه بحقه فدفعه إليه. فقال الإراشي وقد وقف على مجلس قريش «جزاه الله خيراً والله أخذ لى بحقى» وجاء الرجل الذى بعثه قومه لكى يتبع محمداً والإراشي فقال: عندما ذهبنا إلى دار أبى جهل رأيت عجباً من العجب والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه فخرج إليه وما معه روحه فقال: أعط هذا حقه.. قال: نعم لا تبرح حتى أخرج إليه حقه.. فدخل ثم خرج إليه بحقه فأعطاه إياه.

ثم لم يلبث أن جاء أبو جهل فقال قائلهم «ويلك مالك والله ما رأينا مثل ما صنعته قط» فقال أبو جهل «ويحكم، والله ما هو إلا أن ضرب على بابى فسمعت صوته فملئت رعباً ثم خرجت إليه وإن فوق رأسه لفحلاً من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا قصرته (القصرة هى أصل العنق) ولا أنيابه لفحل قط، والله لو أبيت لأكلنى».

قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريباً من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة فوجدوا الرسول فى المجلس فجلسوا إليه فكلموه وسألوه ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة فلما فرغوا من سؤال رسول الله ﷺ عما أرادوا دعاهم الرسول إلى الله عز وجل وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا إلى الله عز وجل وآمنوا بالرسول وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل فى نفر من قريش وقال لهم «خيبكم الله من ركب، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال. ما نعلم ركباً أحمق منكم» فقال له الأنصار «سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيراً»





بينما كان رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة، اعترضه الأسود بن المطلب، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، والعاصى بن وائل السهمى، وكانوا ذوى شأن فى قومهم، فدعوه إلى أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة، ويزوجوه ما أراد من النساء وقال له قائلهم:

هذا لك يا محمد، وكف عن شتم آلهتنا ولا تذكرها بسوء، فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة فيها صلاح.

فقال رسول الله ﷺ: ما هى؟

قال الأسود: هلم يا محمد فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت فى الأمر، فإن كان الذى نعبده خيراً مما تعبد كنا قد أخذت منه بحظك، وإن كان الذى تعبده خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا منه بحظنا.

فأنزل الله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ (سورة الكافرون)

اقتتلت الروم والفرس فهزمت الروم فبلغ ذلك النبى ﷺ وأصحابه وهو بمكة، فشق ذلك عليهم، وكان النبى ﷺ يكره أن يظهر الأميون من المجوس على أهل الكتاب من الروم، وفرح الكفار بمكة وشمتوا، فلقوا أصحاب النبى ﷺ فقالوا:

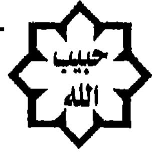
إنكم أهل كتاب وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب وإنكم إذا قاتلتمونا لنظهرن عليكم.

فأنزل الله تعالى قوله:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ (سورة الروم)





لما نزلت هذه الآيات قال المشركون لأبى بكر:

ألا ترى ما يقول صاحبك؟ يزعم أن الروم تغلب فارس.

قال أبو بكر: صدق صاحبى ثم خرج إلى الكفار فقال: أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا؟ فلا تفرحوا ولا يقر الله عينكم، فوالله ليظهرن الروم على فارس، أخبرنا بذلك نبينا. فقام إليه أبى بن خلف فقال: كذبت

فقال أبو بكر: أنت أكذب يا عدو الله ـ فقال أبىّ: عشر قلائص منى وعشر قلائص منك (القلائص مفردها قلوص وهى الناقة الشابة) فإن ظهرت الروم على فارس غرقت أنا وإن ظهرت فارس على الروم غرمت إلى ثلاث سنين.

ثم جاء أبو بكر إلى النبى ﷺ فأخبره فقال له النبى: ما هكذا ذكرت، إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع، فزايده وماده فى الأجل (أى زاد عليه ما يتراهن عليه وزاد فى الأجل إلى تسع سنين كما ورد فى الآية الكريمة). فخرج أبو بكر فلقى أبيًا فقال له أبىّ: لعلك ندمت؟

فقال أبو بكر.. لا تعال أزيدك فى الخطر وأمادك فى الأجل، فاجعلها مائة قلوص بمائة قلوص إلى تسع سنين.. فقال أبىّ:

فعلت.

كان ذلك قبل تحريم الرهان، ولما خشى أبىّ بن خلف أن يخرج أبو بكر من مكة أتاه ولزمه وقال: إنى أخاف أن تخرج من مكة فأقم كفيلاً.. فكفله ابنه عبدالله بن أبى بكر، فلما أراد أبىّ بن خلف أن يخرج إلى أحُد أتاه عبدالله بن أبى بكر وقال له: لا والله لا أدعك تخرج حتى تعطينى كفيلاً، فأعطاه كفيلاً، فخرج إلى أحد ثم رجع إلى مكة وبه جرح أحدثه به النبى ﷺ حين بارزه يوم أحد، ومات متأثراً به بمكة. ثم ظهرت الروم على فارس فغلب أبو بكر أبياً وأخذ الخطر (أى الرهان) من ورثته، فجاء يحمله إلى رسول الله ﷺ، فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام: هذا سحت (تصدق به).

وفاة أبى طالب:

مرض أبو طالب واشتد المرض عليه، فلما بلغ قريشاً ذلك، قال قائلهم: إن حمزة وعمر قد أسلما وقد فشا أمر محمد فى قبائل قريش كلها، فانطلقوا بنا إلى أبى طالب، فيأخذ لنا على ابن أخيه وليعطه منا فإنا والله ما نأمن أن يبتزونا أمرنا.



فمشوا إلى أبى طالب وكانوا أشراف القوم عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف، وأبو سفيان بن حرب وغيرهم فقال قائلهم لأبى طالب:

يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترى، وتخوفنا عليك، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك، فادعه وخذ لنا منه ليكف عنا ونكف عنه، وليدعنا وديننا وندعه ودينه.

فبعث إليه أبو طالب فجاء النبى ﷺ فدخل البيت وبينهم وبين أبى طالب قدر مجلس رجل، فخشى أبو جهل أن جلس رسول الله ﷺ إلى أبى طالب أن يكون أرق عليه، فوثب أبو جهل فجلس فى ذلك المجلس، فلم يجد رسول الله ﷺ مجلساً قرب عمه، فجلس عند الباب، فقال له أبو طالب:

يا ابن أخى هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليعطوك وليأخذوا منك.

فقال رسول الله ﷺ: نعم كلمة واحدة يعطونها يملكون بها العرب وتدين لهم بها العجم، ففزعوا لكلمته ولقوله، فقال قائلهم:

كلمة واحدة؟؟

فقال رسول الله ﷺ : نعم.

فقال أبو جهل:

نعم وأبيك، عشر كلمات

فقال رسول الله ﷺ : تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه فصفق القوم بأيديهم يضربون كفاً بكف ثم قال قائلهم:

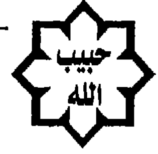
يا محمد تريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟؟

إن أمرك لعجب.. ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دينكم حتى يحكم الله بينكم وبينه.

ثم تفرق القوم، فقال أبو طالب لرسول الله ﷺ:

والله يا ابن أخى. ما رأيتك سألتهم شحطاً.. فلما قالها أبو طالب ـ أحب الرسول ﷺ أن يعلن أبو طالب إسلامه.

وجعل رسول الله ﷺ يقول لعمه: أى عم، فأنت فقلها أستحل لك بها الشفاعة يوم



القيامة. فلما رأى أبو طالب حرص الرسول ﷺ على ذلك قال: لولا مخافة السبة عليك. وعلى بنى أبيك من بعدى، وأن تظن قريش أنى إنما قلتها جزعاً من الموت لقلتها، لا أقولها إلا لأمرك بها.

لما حضرت الوفاة أبا طالب جمع إليه وجوه قريش فأوصاهم فقال:

يا معشر قريش، أنتم صفوة الله من خلقه وقلب العرب، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيباً إلا أحرزتموه، ولا شرفاً إلا أدركتموه، فلكم بذلك على الناس الفضيلة، ولهم به إليكم الوسيلة، والناس لكم حرب، وعلى قربكم ألب، وإنى أوصيكم بتعظيم هذه البنية، فإن فيها مرضاة للرب، وقواماً للمعاش، وثباتاً للوطأة، صلوا أرحامكم ولا تقطعوها، فإن فى صلة الرحم منسأة، فى الأجل، وزيادة فى العدد. واتركوا البغى والعقوق ففيها هلكت قرون قبلكم. أجيبوا الداعى وأعطوا السائل فإن فيها شرف الحياة والممات. عليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة، فإن فيها محبة فى الخاص ومكرمة فى العام. وإنى أوصيكم بمحمد خيراً، فإنه الأمين فى قريش والصديق فى العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيكم به. وأيم الله فإنى كأنى أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الوبر فى الأطراف والمستضعفين من الناس وقد أجابوا دعوته، وصدقوا كلمته وعظموا أمره فخاض بهم غمرات الموت، فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذناباً ودورها خراباً، وضعافها أرباباً وأعظمهم عليه أحوجهم إليه وأبعدهم منه أحظاهم عنده قد محضته العرب ودادها، وأصفت له فؤادها وأعطته قيادها، دونكم يا معشر قريش ابن أبيكم، كونوا له ولاة، ولحربه حماة. والله لا يسلك أحد منكم سبيله إلا رشد، ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد، ولو كان لنفسى مدة ولأجلي تأخير لكففت عنه الهزاهز ولدفعت عنه الدواهى.

بعد ذلك مات أبو طالب، وكانت وفاته، قبل موت خديجة رضى الله عنها، وفى نفس العام وقبل هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة بثلاث سنين.

لما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تطمع فيه فى حياة أبى طالب. حتى أن رسول الله ﷺ قال:

يا عم، ما أسرع ما وجدت فقدك

ولكن رغم ما نال الرسول ﷺ من الأذى على يد قريش بعد وفاة عمه أبى طالب فإنه



لم يفقد ثقته بالله وإيمانه بأن الله سوف ينصره على المشركين.

والأمثلة على ذلك كثيرة فإن كتب السيرة تروى أنه بعد موت أبى طالب اعترض رسول الله ﷺ أحد سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً، فدخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه؛ فقامت إحدى بناته فجعلت تغسل عنه وهى تبكى؛ ورسول الله ﷺ يقول: لا تبكى فإن الله مانع أباك.

ويقال إن أبا لهب؛ على الرغم من عدائه لرسول الله ﷺ إلا أنه لما بلغه أن الرسول ﷺ قد نالت قريش منه ما لم تكن تنال ولا تطمع فيه بعد وفاة أبى طالب؛ لاسيما بعد أن ماتت خديجة رضى الله عنها فقد اجتمع على رسول الله ﷺ مصيبتان هما موت أبى طالب وموت خديجة؛ فلزم الرسول بيته وأقل الخروج؛ عند ذلك أشفق أبو لهب على رسول الله ﷺ. فلقد جاء أبو لهب رسول الله ﷺ بعد أن بلغه ما نالته قريش من النبى فقال له:-

يا محمد، امض لما أردت وما كنت صانعاً إذ كان أبو طالب حياً فاصنعه. لا واللات والعزى لا يوصل إليك حتى أموت.

وذات يوم سبَّ ابن الغيطلة النبى ﷺ، فأقبل عليه أبو لهب فنال منه فولى وهو يصيح:-

يا معشر قريش: صبا أبو عتية!!

فأقبلت قريش حتى وقفوا على أبى لهب فقال لهم: ما فارقت دين عبد المطلب، ولكن امنع ابن أخى أن يضام حتى يمضى لما يريد.

فقالت له قريش: قد أحسنت وأجملت ووصلت الرحم

ومضت على رسول الله ﷺ أيام يذهب ويأتى ولا يعترض له أحد من قريش، فقد هابوا أبا لهب ولكن لم تدم حماية أبى لهب لرسول الله ﷺ طويلاً فإن الله سبحانه وتعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وحمية الجاهلية كانت قد تمكنت من أبى لهب ولقد اشتد إيذاء قريش لرسول الله ﷺ، وتأملوا معى قول عبدالله بن مسعود: ما رأيت رسول الله ﷺ دعا على قريش غير يوم واحد فإنه كان يصلى ورهط من قريش جلوس وسلا جزور نحرت بالأمس قريباً فقال أبو جهل: من يأخذ سلا هذا الجزور فيضعه على كتفى محمد إذا سجد فانبعث أشقاهم عقبة بن أبى معيط فجاء به فقذفه على





ظهره ﷺ، فضحكوا وجعل بعضهم يميل إلى بعض والنبى ﷺ ما يرفع رأسه،وجاءت فاطمة رضى الله عنها فطرحته عن ظهره ودعت على من صنع ذلك. فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته رفع رأسه فحمد الله تعالىٰ وأثنى عليه ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا دعا ثلاثاً، وإذ سأل سأل ثلاثاً ثم قال: اللهم عليك بالملأ من قريش، اللهم عليك بأبى جهل وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة، وأمية ابن خلف وعقبة بن أبى معيط وذكر السابع فلم أحفظه فوالذى بعثه بالحق لقد رأيت الذين سمى صرعى ببدر ثم سحبوا إلى القليب قليب بدر، غير أمية بن خلف فإنه كان رجلاً بادناً فتقطع قبل أن يبلغ به إليه.

خرج رسول الله ﷺ من المسجد فلقيه أبو البخترى ومعه سوط يتخصر به، فلما رأى الرسول أحس أنه قد أصابه شىء من أذى قريش، فقال للرسول ﷺ: مالك؟ فقال له النبى ﷺ: خل عنى قال أبو البخترى: يعلم الله لا أخلى عنك أو تخبرنى ما شأنك فلقد أصابك شىء.

فلما علم رسول الله ﷺ أنه غير مخل عنه أخبره وقال: إن أبا جهل أمر فطرح عليه فَرْث. فقال أبو البخترى:

هلم إلى المسجد

فأتى رسول الله ﷺ وأبو البخترى فدخلا المسجد، ثم أقبل أبو البخترى على أبى جهل فقال له:

يا أبا الحكم أنت الذى أمرت بمحمد فطُرح عليه الفرث؟

قال: نعم

قال أبو البخترى: إذن خذ على رأسك وضرب أبا جهل بالسوط على رأسه.

فصاح أبو جهل: ويحكم إنما أراد محمد أن يلقى بيننا العداوة وينجو هو وأصحابه.

عن أنس رضى الله عنه قال: لقد ضربوا رسول الله ﷺ حتى غشى عليه، فقام أبو بكر فجعل ينادي: ويلكم.. أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله..

ويروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال.. أيها الناس أخبرونى بأشجع الناس، قالوا: لا نعلم.. قال: فمن؟ فقال واحد من المسلمين: أبو بكر.. لقد رأيت رسول الله ﷺ أخذته قريش، وهذا يجؤه وهذا يُتَلْتِلُه وهم يقولون.. أنت الذى جعلت الآلهة





إلهاً واحداً.. والله ما دنا منه منا أحد إلا أبو بكر يضرب هذا ويجالد هذا ويتلتل هذا ويقول: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله !!

ثم رفع على رضى الله عنه بردة كانت عليه فبكى حتى اخضلت لحيته، ثم قال: أنشدكم الله أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر؟

فسكت القوم. فقال: ألا تجيبوني؟ فوالله لساعة من أبى بكر خير من مثلى مؤمن آل فرعون ذاك رجل يكتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه.

الرسول ﷺ يعرض نفسه على القبائل:

خرج الرسول ﷺ ومعه زيد بن حارثة يلتمس النصر من ثقيف والمنعة بهم من قومه، ورجا أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله تعالى.

فلما انتهى إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف فجلس إليهم رسول الله ﷺ وكلمهم بما جاء به من نصرته والقيام على من خالفه من قومه.. فقال له أحدهم:

إن كان الله أرسلك

وقال الآخر:

أما وجد الله أحداً يرسله غيرك؟

وقال الثالث:

والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله، ما ينبغى لى أن أكلمك.

فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد قال لهم: إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا علىّ فقد كره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه، وقد أقام رسول الله ﷺ بالطائف عدة أيام، لا يدع أحداً من أشرافهم إلا جاء إليه وكلمه فلم يجيبوه وخافوا على أحداثهم منه، وقالوا له: يا محمد اخرج من بلدنا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس.

ولكم احتمل رسول الله ﷺ من الأذى فى سبيل الدعوة.

ومع ذلك صبر ولم ييأس من رحمة الله ونصرته له..

لقد وقف له القوم صفين على طريقه، فلما مر رسول الله ﷺ بين الصفين جعل لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة حتى أدموا رجليه.. وكان ﷺ إذا أذلقته





الحجارة يقعد إلى الأرض، فيأخذون بعضديه ويقيمونه فإذا مشى رجموه وهم يضحكون لقد ظل زيد معه، وكان يقيه بنفسه حتى لقد شج في رأسه.

وقد خلص منهم الرسول ﷺ ورجلاه تسيلان دماً.. فعمد إلى حائط من حوائطهم فاستظل بظله وهو مكروب موجع، وإذا في الحائط عتبة وشيبة ابنا ربيعة فلما رآهما كره مكانهما لما يعلم من عداوتهما لله ورسوله. فانصرف حتى أتى ظل شجرة فصلى ركعتين.. ودعا الله فقال: اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني، الى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو تحل عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك.

فلما رآه ابنا ربيعة تحركت له رحمهم فدعوا غلاماً لهما يقال له عداس فقالا له:

خذ له هذا القطف من هذا العنب فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له: يأكل منه.

ففعل عداس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ثم قال له: كل..

فلما وضع رسول الله ﷺ يده، قال: بسم الله، ثم أكل، فنظر عداس في وجهه ثم قال:

والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد فقال له رسول الله ﷺ: من أي البلاد أنت يا عداس وما دينك؟ فقال عداس: نصراني وأنا من أهل نينوى.

فقال له رسول الله ﷺ: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى.. فقال عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ والله لقد خرجت من نينوى وما فيها عشرة يعرفون ما يونس ابن متى، فمن أين عرفت أنت يونس بن متى وأنت أمي وفي أمة أمية؟

قال رسول الله ﷺ : ذلك أخي كان نبياً وأنا نبي.. فأكب عداس على رأس رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه ـ فقال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك.

فلما جاء عداس قالا له: ويلك، ما لك تُقبّل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟





قـال عـداس: يا سيدى ما فى الأرض خير من هذا الرجل لقد أعلمنى بأمر لا يعلمه إلا نبى، فقال عتبة بن ربيعة: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك فإن دينك خير من دينه.

وانصرف رسول الله ﷺ عنهم وهم محزون لم يستجب له رجل واحد ولا امرأة.

قالت عـائشة رضى الله عنها للنبى ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟

فقال رسول الله ﷺ: لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلال فلم يجبنى إلى ما أردت أحدٌ. فانطلقت على وجهى وأنا مهموم فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى فنظرت فإذا فيها جبريل، فنادانى وقال: إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال فتأمر بما شئت فيهم. فنادانى ملك الجبال فسلم علىّ ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك، وأنا ملك الجبال قد بعثنى الله عز وجل لتأمرنى بما شئت، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين. فقال النبى ﷺ: بل أرجو أن يُخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل ولا يشرك به شيئاً.

لما انصرف رسول الله ﷺ عن أهل الطائف ولم يجيبوه إلى ما دعاهم إليه من تصديقه ونصرته أقام بنخلة أياماً وأراد الرجوع إلى مكة، فقال له زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم وهم قد أخرجوك؟ فقال رسول الله ﷺ: يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً وإن الله مظهر دينه وناصر نبيه.. ثم انتهى إلى حراء وبعث عبدالله بن أريقط إلى الاخنس بن شريق ليجيره.. فقال الأخنس: أنا حليف والحليف لا يجير. فبعث إلى سهيل بن عمرو فقال: إن بنى عامر بن لؤى لا يجير على بنى كعب.. فبعث إلى المطعم بن عدى فأجابه إلى ذلك وقال: نعم قل له فليأت.

فرجع عبدالله بن أريقط إلى رسول الله ﷺ فأخبره بما قال له المطعم وقبوله أن يجيره فدخل رسول الله ﷺ فبات عنده تلك الليلة؛ فلما أصبح خرج المطعم بن عدى وقد لبس سلاحه هو وبنوه وقالوا لرسول الله ﷺ: طف وهم يحملون سلاحهم؛ فأقبل أبو سفيان إلى المطعم بن عدى فقال له: أمجير أم تابع؟ قال: بل مجير

قال أبو سفيان: إذن لا تخفر قد أجرنا من أجرت.. ثم جلس معه حتى قضى رسول



الله ﷺ طوافه. فلما انصرف إلى بيته انصرفوا معه.

والمطعم بن عدى هذا مات كافراً. وقد مات بعد هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة. ومن أجل هذه السابقة للمطعم فإن رسول الله ﷺ قال بعد معركة بدر: لو كان المطعم بن عدى حياً ثم كلمنى فى هؤلاء النتنى (يعنى أسارى بدر) لأطلقتهم له.

ظل رسول الله ﷺ يعرض نفسه على قبائل العرب يدعوهم إلى الله عز وجل ويخبرهم أنه نبى مرسل ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يتبين من الله عز وجل ما بعثه به.. يقول ربيعة بن عباد:-

إنى لغلام شاب مع أبى بمنى ورسول الله ﷺ يقف على القبائل من العرب فيقول: يا بنى فلان إنى رسول الله إليكم يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأن تخلصوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بى وتصدقونى وتمنعونى حتى أبين عن الله عز وجل ما بعثنى به. يقول الرسول ذلك والناس متقصفون عليه ما رأيت أحداً يقول له شيئاً. وهو لا يسكت، وخلفه رجل أحول وضىء له غديرتان، عليه حلة، عدنية، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله وما دعا إليه قال ذلك الرجل:

يا بنى فلان إن هذا الرجل إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه.

فلما سكت هذا الرجل قلت لأبى: يا أبت من هذا الرجل الذى يرد عليه ما يقول ويتبعه حيث ذهب ورسول الله ﷺ يفر منه. قال: هذا عمه عبدالعزى بن عبدالمطلب أبو لهب.

عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: لما أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه، فدفعنا إلى مجلس من القوم عليهم السكينة والوقار، فتقدم أبو بكر فسلم وقال: ممن القوم؟ قالوا: من شيبان بن ثعلبة. فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ﷺ وقال: بأبى وأمى هؤلاء عزر الناس. ومنهم مفروق بن عمرو وهانىء بن قبيصة، والمثنى بن حارثة والنعمان بن شريك. وكان مفروق قد غلبهم لساناً وجمالاً، وكان أدنى القوم مجلساً من أبى بكر فقال أبو بكر: كيف العدد فيكم؟ قال مفروق: إنا لا نزيد الألف، ولن تغلب ألف من قلة.

فقال أبو بكر: وكيف المنعة فيكم؟ قال مفروق: إنا لأشد ما نكون غضباً حين نلتقى وأشد ما نكون لقاء حين نغضب. وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد والسلاح على اللقاح،





والنصر من عند الله يديلنا مرة ويديل علينا أخرى. ثم تساءل: لعلك أخا قريش؟

فقال أبو بكر: إن كان بلغكم أنه رسول الله ﷺ فها هو ذا. فقال مفروق: إلام تدعونا يا أخا قريش؟

فقال رسول الله ﷺ: أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنى عبد الله ورسوله، وإلى أن تؤونى وتنصرونى فإن قريشاً قد تظاهرت على الله، وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق والله هو الغنى الحميد.

قال مفروق: وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ والله ما سمعت كلاماً أحسن من هذا

فتلا رسول الله ﷺ قوله تعالى: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ (سورة الأنعام)

قال مفروق: دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك، وهذا هانىء شيخنا وصاحب ديننا.

وقال هانىء: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، وإنى أرى تركنا ديننا، واتباعنا دينك لمجلس جلست إلينا، لا أول له ولا آخر لذل فى الرأى وقلة نظر فى العاقبة. إن الذلة مع العجلة وإنا نكره أن نعقد على من وراءنا عقداً. ولكن نرجع وترجع وننظر وتنظر.. وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا.

فقال المثنى: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، والجواب فيه جواب هانىء بن قبيصة فى تركنا ديننا ومتابعتنا دينك وإنا إنما نزلنا بين صريين أحدهما اليمامة والآخر السمامة فقال رسول الله ﷺ: ما هذان الصريان؟

قال المثنى: أنهار كسرى ومياه العرب، فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول، وأما ما كان مما يلى مياه العرب فذنب صاحبه مغفور



وعذره مقبول. وإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نحدث حدثاً، ولا نؤوى محدثاً، وإنى أرى هذا الأمر الذى تدعونا إليه يا أخا قريش مما تكرهه الملوك. فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلى مياه العرب فعلنا.

فقال رسول الله ﷺ: ما أسأتم فى الرد إذ أفصحتم بالصدق. وإن دين الله عز وجل لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله تعالى أرضهم وديارهم وأموالهم، ويفرشكم نساءهم، أتستحبون الله تعالى وتقدسونه؟

فقال النعمان: اللهم فَلَكَ ذاك.

ثم تلا رسول الله ﷺ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيراً ﴿٤٦﴾﴾ (الأحزاب)

أتى رسول الله ﷺ سوق عكاظ فهتف بالناس قائلاً: ممن القوم؟ فردوا عليه نحن من بنى عامر بن صعصعة، بنى كعب بن ربيعة.

فقال رسول الله ﷺ: إنى رسول الله إليكم وأتيتكم لتمنعونى حتى أبلغ رسالة ربى ولا أكره أحداً منكم على شىء.. فقالوا: لا نؤمن بك، وسنمنعك حتى تبلغ رسالة ربك.

فأتاهم بيجرة بن فراس القشيرى فقال: من هذا الرجل الذى أراه عندكم؟ أنكره

فقالوا: هذا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب.

قال: فما لكم وله؟

قالوا: زعم أنه رسول الله فطلب إلينا أن نمنعه حتى يبلغ رسالة ربه.

قال بيجرة: فما رددتم عليه؟

قالوا: بالرحب والسعة، نخرجك إلى بلادنا ونمنعك مما نمنع منه أنفسنا.

قال بيجرة: ما أعلم أحداً من أهل هذه السوق يرجع بشىء أشر من شىء ترجعون به أتعمدون إلى رهيق قوم طردوه وكذبوه فتؤوه وتنصروه. تنابذوا العرب عن قوس واحدة؟ قومه أعلم به فبئس الرأى رأيكم.

فقام رسول الله ﷺ إلى ناقته ليركبها فغمز الخبيث بجيرة شاكلها فتقمصت برسول الله ﷺ فألقته. وعند بنى عامر يومئذ ضباعة بنت عامر بن حوط، وكانت من النسوة



اللاتى أسلمن بمكة، جاءت زائرة إلى بنى عمها فقالت: يا لعامر، ولا عامر لى، أيصنع هذا برسول الله ﷺ بين أظهركم ولا يمنعه أحد منكم؟

فقام ثلاثة نفر من بنى عمها إلى بجيرة واثنين أعاناه، فأخذ كل رجل منهم رجلاً فجلد به الأرض، ثم جلس على صدره ثم علوا وجوههم لطماً، فقال رسول الله ﷺ: اللهم بارك على هؤلاء والعن هؤلاء. فأسلم الثلاثة الذين نصروه، وهلك الآخرون.

وقف رسول الله ﷺ على بنى عامر يدعوهم إلى الله تعالى فقام رجل منهم فقال: عجباً لك والله قد أعياك قومك ثم أعياك أحياء العرب كلها حتى تأتينا وتتردد علينا مرة بعد مرة؟ والله لأجعلنك حديثاً لأهل الموسم.

ونهض إلى رسول الله ﷺ وكان جالساً فكسر الله ساق الخبيث، فجعل يصيح من رجله وانصرف رسول الله ﷺ.

جاء رسول الله ﷺ كندة فى منازلهم فعرض نفسه عليهم فأبوا، فقال أصغر القوم: يا قوم اسبقوا إلى هذا الرجل. قبل أن تسبقوا إليه، فوالله إن أهل الكتاب ليحدثونا أن نبياً يخرج من الحرم قد أظل زمانه.

ومع ذلك فقد أبى القوم وقدم سويد بن الصامت مكة حاجاً أو معتمراً، وكان سويد إنما يسميه قومه «الكامل»، لجلده وشعْره وشرفه ونسبه، فتصدى له رسول الله ﷺ حين سمع به فدعاه إلى الله تعالى وإلى الإسلام، فقال سويد:

لعل الذى معك مثل الذى معى؟

فقال له رسول الله ﷺ: وما الذى معك؟

قال سويد: مُجَلَّةُ لقمان.

فقال له رسول الله ﷺ: اعرضها علىّ، فعرضها عليه، فقال عليه الصلاة والسلام: هذا كلام حسن والذى معى أفضل من هذا: قرآن أنزله الله تعالى هو هدى ونور، فتلا رسول الله ﷺ عليه القرآن ودعاه إلى الإيمان، فقال سويد:

إن هذا القول حسن

ثم انصرف عنه فقدم المدينة على قومه فلم يلبث أن قتلته الخزرج، فكان رجال قومه يقولون: إنا لنراه قد قتل وهو مسلم.





بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ (الرعد)

كثيراً ما استهزىء برسول الله ﷺ وشاءت إرادة الله أن يلقى هؤلاء المستهزئون سوء العاقبة فى الحياة الدنيا، من هؤلاء الأسود بن عبديغوث بن وهب بن زهرة، وهو ابن خال رسول الله ﷺ وكان إذا رأى المسلمين قال لأصحابه:.

قد جاءكم ملوك الأرض الذين يرثون ملك كسرى وقيصر.

وإذا لقى رسول الله ﷺ قال له مستهزئاً: أما كُلمت اليوم من السماء يا محمد؟

لكن الله تعالى كان له بالمرصاد، فقد خرج الأسود من عند أهله يوماً ما وعذبته السَّموم فاسود وجهه حتى صار حبشياً، فأتى أهله فلم يعرفوه وأغلقوا دونه الباب، فرجع هائماً على وجهه حتى مات عطشاً.

ومن هؤلاء المستهزئين الحارث بن قيس السهمى وهو ابن العنيطلة (ينسب إلى أمه)، وكان يأخذ حجراً يعبده، فإذا رأى أحسن منه تركه وأخذ الأحسن وكان الحارث يقول لقومه:

لقد غر محمد نفسه وأصحابه أن وعدهم أن يحيوا بعد الموت والله ما يهلكنا إلا الدهر ومرور الأيام والأحداث.

وفيه نزل قول الله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ (الفرقان)





وكانت نهاية الحارث ان أكل حويتاً مملوحاً فلم يزل يشرب عليه الماء حتى انقد بطنه.

ومن هؤلاء المستهزئين برسول الله ﷺ الأسود بن المطلب بن أسد بن عبدالعزى، وقد كان هو وأصحابه يتغامزون على النبى ﷺ، وكلم رسول الله ﷺ بكلام شق عليه فدعا عليه الرسول أن يُعمى الله بصره ويثكله ولده.

خرج الأسود ليستقبل ابنه وقد قدم من الشام، فلما كان ببعض الطريق جلس فى ظل شجرة، فجعل جبريل ﷺ يضرب وجهه وعينيه بورقة من ورقها وبشوك من شوكها حتى عَمى فجعل يستغيث بغلامه: أدركنى يا غلام، أغثنى، من ذا الذى يضربنى على وجهى وعينى حتى ما عدت أرى قال الغلام: والله ما أرى أحداً يصنع بك شيئاً غير نفسك ولما كان يوم بدر قتل ابنه زمعة بن الأسود وقتل أيضاً ابنه عقيل.

ومن المستهزئين أيضاً مالك بن الطلاطلة بن عمرو بن غبشان، وكان سفيهاً فدعا عليه رسول الله ﷺ واستعاذ بالله من شره فعصر جبريل بطنه حتى خرج خلاؤه من بطنه فمات.

يقول الله تبارك وتعالى فى محكم آياته:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ (الحجر)

كثيراً ما يتعرض رسول الله ﷺ للأذى من كفار قريش، ولطالما استهزءوا به، وشاءت إرادة الله عز وجل أن يلقى هؤلاء المستهزئون سوء العاقبة فى الحياة الدنيا.

ومن هؤلاء العاصى بن وائل السهمى.. وتعالوا بنا نستمع إلى حكايته يرويها خباب ابن الأرت يقول:

كنت حداداً فى الجاهلية، فعملت للعاصى بن وائل سيفاً فجئته أتقاضاه وآخذ ثمنه فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد.

قلت: لا أكفر حتى يميتك الله ثم تُبعث.



قال العاصي: وإنى لميت ثم مبعوث؟

قال: بلى

فقال العاصي: يعني أموت وأبعث فنؤتى مالاً وولداً فأعطيك هنالك حقك، ووالله لا تكون أنت وصاحبك يا خباب آثر عند الله منى ولا أعظم حظاً.

فأنزل الله تعالى فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ (مريم)

ولقد كانت نهاية العاصي بأن ركب حماراً وهو يريد الطائف، فلما نزل شعْباً من الشعاب ألقى به الحمار على ضريع رطب، فأصابت رجله شوكة فانتفخت حتى صارت كعنق البعير ومات.

وكان من الذين آذوا رسول الله ﷺ واستهزءوا به أبو لهب. وكان من أشد الناس عداوة للنبى.

عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: كنت بين شر جارين، بين أبى لهب وعقبة بن أبى معيط، إن كانا ليأتيان بالفروث فيطرحانها على بابى.

وبعث أبو لهب ابنه عتبة بشيء يؤذى به رسول الله ﷺ، فسمعه يقرأ.. والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى. فقال عتبة:

أنا كافر برب النجم

فقال رسول الله ﷺ: سلط الله عليك كلباً من كلابه.

فخرج عتبة فى تجارة، فجاء الأسد وهو بين أصحابه نائم بحوران من أرض الشام، فجعل الأسد يهمس ويشم حتى انتهى إليه فمضغه مضغة أتت عليه، فجعل يقول وهو بآخر رمق:

ألم أقل لكم إن محمداً أصدق الناس؟

أما أبو لهب فقد مات بداء يعرف بالعدسة، كانت العرب تتشاءم به وتفر ممن ظهر به. فلما أصاب أبا لهب تركه أهله حتى مات، ومكث مدة لا يدفن حتى خافوا العار



فحفروا له حفرة فرموه فيها.

أما امرأة أبى لهب أم جميل ابنة حرب فكانت تؤذى رسول الله ﷺ كثيراً وهى التى سماها الله عز وجل حمالة الحطب؟ ولقد أسماها الله تعالى كذلك لأنها كانت تحمل الشوك فتطرحه بالليل على طريق رسول الله ﷺ حيث يمر هو وأصحابه لتعقرهم بذلك. وبينما هى ذات يوم تحمل حزمة من الشوك حتى أعيت فقعدت على حجر لتستريح فأتاها ملك فجذبها من خلفها بالحبل الذى فى عنقها فخنقها به.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾ (المسد)

الإسراء والمعراج:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ (الاسراء)

لما رجع رسول الله ﷺ من رحلة الإسراء والمعراج، أتى مكة قبل الصبح فأخبر قومه بما رأى، لكن القوم كذبوه، فقعد حزيناً حتى مر عليه عدو الله أبو جهل، فجاء حتى جلس إليه وقال له كالمستهزىء:

هل كان من شىء؟

فقال رسول الله ﷺ : نعم

قال: ما هو؟

فقال عليه الصلاة والسلام: أُسرى بى الليلة.

تساءل أبو لهب: إلى أين؟

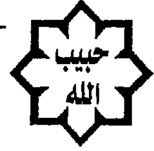
قال عليه الصلاة والسلام: إلى بيت المقدس

فقال أبو جهل متعجباً: ثم أصبحت بين ظهرانينا!!

أجابه الرسول ﷺ: نعم

قال أبو جهل: أرأيت إن دعوت قومك تحدثهم بما حدثتنى؟





فقال عليه الصلاة والسلام : نعم.. فدعا أبو جهل القوم فجاءوا فقال ﴿.
أبو جهل:

حدِّث قومك بما حدثتنى.

قال عليه الصلاة والسلام: إنى أسرى الليلة بى.

قال أبوجهل: إلى أين؟

قال الرسول ﷺ : إلى بيت المقدس.

قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟

قال عليه الصلاة والسلام : نعم، فصار القوم بين مصفق، وبين واضع يده على رأسه متعجباً. وأحدثوا ضجيجاً عالياً.

فقال المطعم بن عدى:

كل أمرك قبل اليوم كان اقماً (أى يسيراً) غير قولك اليوم، أنا أشهد أنك كاذب. نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مُصعِداً شهراً ومنحدراً شهراً.. أتدعى أنت أنك أتيته فى ليلة؟ واللات والعزى لا أصدقك.

فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لمطعم: بئس ما قلت لابن أخيك، جبهته وكذبته. أما أنا فأشهد أنه صادق. ثم قال قائل القوم للنبى:

يا محمد.. صف لنا بيت المقدس، كيف بناؤه وكيف هيئته؟ وكيف قربه من الجبل؟

فأخذ رسول الله ﷺ يصف لهم بناءه وهيئته وقربه من الجبل.

وسأل أحدهم: وكم للمسجد من باب؟

ولم يكن رسول الله ﷺ قد عدها، فجيء له بالمسجد، حتى رآه رأى العين، فجعل ينظر إليه ويعدها باباً باباً ويعلمهم بذلك، وأبو بكر يقول: صدقت ـ صدقت، أشهد أنك رسول الله.

فقالوا لأبى بكر:

أفتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟

قال أبو بكر: إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء فى غدوه أو



رواحه. فقالوا: يا محمد أخبرنا عن عيرنا؟

فقال عليه الصلاة والسلام: أتيت على عير بنى فلان بالروحاء قد ضلوا ناقة لهم، فانطلقوا فى طلبها، فانتهيت إلى رحالهم فليس بها منهم أحد، وإذا قدح ماء فشربت منه، ثم انتهيت إلى عير بنى فلان فى التنعيم، يقدمها جمل أورق عليه مسح أسود وغرارتان سوداوان، وها هى ذى تطلع عليكم من الثنية فقال قائلهم:

ومتى تجىء؟

قال عليه الصلاة والسلام: يوم الأربعاء.. فلما كان ذلك اليوم انصرفت قريش ينظرون حتى دخلت العير..

أهل العقبة الأولى:

ظل رسول الله ﷺ يعرض نفسه فى كل موسم على القبائل ويدعوهم إلى الله تعالى ويطلب منهم أن يؤووه وينصروه، ويمنعوا قريشاً من تظاهرهم عليه، فيعرضون عنه تارة بالرد الجميل وأخرى بالرد القبيح، وأقبحهم رداً قبيلة بنى حنيفة التى منها مسيلمة الكذاب، وبنو عامر الذين طلبوا منه أن يكون لهم الأمر من بعده، فقال لهم رسول الله ﷺ: الأمر لله يضعه فيمن يشاء.

وذات يوم وبينما رسول الله ﷺ عند جمرة العقبة سنة إحدى عشرة من النبوة، إذ لقى رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً، وكانوا ستة وقيل ثمانية فكلمهم ودعاهم إلى الإسلام فقال بعضهم لبعض:

ان هذا هو النبى الذى كانت تعدكم به اليهود فلا يسبقكم إليه أحد.

فأجاب القوم رسول الله ﷺ وآمنوا به وصدقوه وقالوا له: قد تركنا قومنا وبينهم من العداوة ما بينهم، فأن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك.

وقفل القوم راجعين إلى بلادهم بعد أن وعدوا رسول الله ﷺ بأن يلقوه فى الموسم القادم.. هؤلاء هم أهل العقبة الأولى، وأول من أسلم من أهل يثرب.

أهل العقبة الثانية:

ولما كان العام المقبل قدم مكة من الأنصار اثنا عشر رجلاً، اثنان من الأوس وعشرة



من الخزرج، منهم خمسة من أهل العقبة الأولى، فبايعوا رسول الله ﷺ عند العقبة على الإسلام وعلى أن يؤوه وينصروه إلى بلدهم.. وهؤلاء هم أهل العقبة الثانية.

يقال دائماً قدم الأنصار، أو فعل الأنصار كذا وكذا، فهل كان هذا هو اسم هؤلاء القوم فى الجاهلية؟

كلا لم يكن الأنصار اسمهم هكذا فى الجاهلية بل أسماهم بذلك المولى سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز لأنهم هم الذين نصروا رسول الله ﷺ. يروى عن غيلان بن جرير قال.. قلت لأنس: أرأيت اسم الأنصار كنتم تسمعون به أم سماكم الله؟

قال: بل سمانا الله عز وجل.

والله سبحانه وتعالى يقول فى محكم آياته:

﴿ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴿٧٤﴾ ﴾ (الأنفال)

والأنصار حزبان.. الأول بنو الأوس والثانى بنو الخزرج. والأوس والخزرج هم ابنا حارثة بن ثعلبة العنقاء، فقد لقب بذلك لطول عنقه، وينتهى نسبهما إلى امرىء القيس الشاعر الجاهلى المعروف. ثم إلى سيدنا إسماعيل عليه السلام.

وكان للأنصار منزلة خاصة عند رسول الله ﷺ فعن رسول الله ﷺ أنه قال: الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق فمن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله وعنه أيضاً أنه قال: آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق بغض الأنصار.

وهناك أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ فى حب الرسول للأنصار ومنزلتهم الكبيرة عنده.

وعلى إثر العقبة الثانية بعث رسول الله ﷺ مصعب بن عمير إلى المدينة ومعه عبدالله ابن أم مكتوم، يعلمان من أسلم القرآن وأمور الدين، ويدعوان إلى الإسلام من لم يسلم، وكان مصعب هو الذى يؤمهم فى الصلاة وصلى بهم أول جمعة فى الإسلام حين بلغ المسلمون منهم أربعين رجلاً.

وفشا الإسلام فى الأنصار وأسلم سعد بن عبادة سيد الخزرج، وسعد بن معاذ سيد الأوس وكان قد هم بقتل مصعب حين دعاه إلى الإسلام فقال له مصعب بلين:



أو تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمراً قبلته وإن كرهته كففنا عنك ما تكره.

فقرأ عليه مصعب القرآن فاستحسن دين الإسلام وأسلم ورجع لقومه فقال:

كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام أو تسلموا فلم يبق بيت من البيوت إلا أجابه، وانتشر الإسلام بيثرب، ولم يكن لهم حديث إلا أمر الإسلام.

لما كان وقت الحج في العام الذى تلا العقبة الثانية وقد وافق السنة الثالثة عشرة من البعثة ذهب مصعب بن عمير إلى مكة فى شهر ذى الحجة ومعه من المسلمين ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان منهم أحد عشر من الأوس والباقى من الخزرج وهم مستخفون من الكفار، فلما اجتمعوا برسول الله ﷺ واعدوه أن يجتمعوا به وسط أيام التشريق ليلاً بالعقبة.. فقالوا للرسول:

يا رسول الله علام نبايعك؟

فقال عليه الصلاة والسلام: تبايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل، وعلى النفقة فى العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وعلى أن تقولوا فى الله ولا تأخذكم لومة لائم، وعلى أن تنصرونى إذا قدمت عليكم يثرب، تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة.

فقام وفد الأنصار ليبايعوا رسول الله ﷺ، وأخذ بيده أسعد بن زرارة فقال: رويداً يا أهل يثرب فإنا لم نضرب إليه أكباد المطى إلا ونحن نعلم أنه رسول الله وأن إخراجه اليوم يعنى مفارقة العرب كافة وقتل خياركم وأن تعضكم السيوف فإما أنتم قوم تصبرون على عض السيوف إذا مستكم وعلى قتل خياركم وعلى مفارقة العرب كافة فخذوه وأجركم على الله وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو أعذر لكم عند الله فقال له القوم من الأنصار:

ابسط يدك يا أسعد بن زرارة فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها وقام القوم إلى رسول الله ﷺ يبايعونه رجلاً رجلاً يأخذ عليهم شرطه ويعدهم على ذلك الجنة وقام كبيرهم البراء بن معرور فقال: لو كان فى أنفسنا غير ما تنطق به لقلناه، ولكن نريد





الوفاء والصدق وبذل المهج دون رسول الله. ثم تخير منهم رسول الله ﷺ اثنى عشر نقيباً تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وقال لهم: أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومى.

ولما علمت قريش بما حدث، عظم الأمر بين المشركين والأنصار حتى كاد أن يكون بينهم قتال.. لكن أبا جهل كره القتال فى تلك الأيام فقال لهم: يا معشر الأوس والخزرج أنتم إخواننا وقد أتيتم أمراً عظيماً، تريدون أن تغلبونا على صاحبنا؟

فاعترضه حارثة بن النعمان وقال له:

نعم وأنفك راغم، والله لو نعلم أنه أمر رسول الله ﷺ أن نخرجك أيضاً لأخرجناك.

فقال أبو جهل: نعرض عليكم أن نلحق بكم من أصحاب محمد من شاء بعد ثلاثة أشهر، ونعطيكم ميثاقاً ترضون به أنتم ومحمد لا نحبسه بعد ذلك.

فقال حارثة: نعم إذا رضى رسول الله ﷺ.

قفل الأنصار عائدين إلى المدينة، فلما علمت قريش بذلك اقتفوا أثرهم وخرجوا فى طلبهم. فأدركوا سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو وكلاهما كان نقيباً.

أما المنذر فقد أفلت منهم وأما سعد فأخذوه وربطوا يديه إلى عنقه بشراك رحله (أى حبل راحلته) ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويعذبونه ويجذبونه من شعره ويروى سعد بن عبادة ما حل به فيقول: والله إنى لفى أيديهم إذ طلع على نفر من قريش فيهم رجل وضىء أبيض شعشاع حلو من الرجال، قلت فى نفسى: إن كان عند أحد من القوم خير فعند هذا فلما دنا منى رفع يده فلطمنى لطمة شديدة فقلت فى نفسى: والله ما عندهم بعد هذا خير فوالله إنى لفى أيديهم يسحبوننى إذ أوى لى رجل ممن كان معهم فقال:

ويحك أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد؟

قلت: بلى والله . ولقد كنت أجير لجبير بن مطعم بن عدى تجارة وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادى، وللحرث بن حرب بن أمية أيضاً.

قال أبو البخترى: ويحك فأهتف باسم الرجلين وأذكر ما بينك وبينهما.

ففعلت ما قال وخرج ذلك الرجل إليهما فوجدهما فى المسجد عند الكعبة فقال لهما:



إن رجلاً من الخزرج الآن يضرب بالأبطح ليهتف بكما ويذكر أن بينه وبينكم جواراً قالوا: ومن هو؟

قال الرجل: سعد بن عبادة

قال: صدق والله.. إنه كان ليجير لنا تُجارنا ويمنعهم أن يظلموا ببلده.

وجاء الرجلان وخلصا سعد بن عبادة من أيديهم.

الهجرة:

لما خرج الأنصار عائدين إلى المدينة بعد أن بايعوا رسول الله ﷺ، طابت نفسه وقد جعل الله له منعة وقوماً أهل حرب ونجدة ثم جعل المشركون يضيقون على المسلمين ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى فشكا ذلك أصحاب رسول الله ﷺ واستأذنوه في الهجرة فأذن لهم في الهجرة إلى المدينة.

وكان أول من قدم المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ أبو سلمة بن عبد الأسد فقد هاجر وحبست عنه امرأته أم سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة وظلت بمكة سنة ثم أذن لها بنو المغيرة الذين حبسوها باللحاق بزوجها.

انطلقت وحدها مهاجرة حتى إذا كانت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة وكان يومئذ مشركاً. فسار بها حتى إذا أقبل على قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال لها: هذا زوجك في هذه القرية ثم انصرف راجعاً إلى مكة فكانت أم سلمة تقول:

ما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ثم استأخر عني حتى إذا نزلت عنه استأخر ببعيري فحط عنه ثم قيده في الشجرة، ثم أتى إلى شجرة فاضطجع تحتها. فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه فرحله ثم بعد عني وقال اركبي، فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه فقادني. فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة.

وتوالت بعد ذلك هجرة المسلمين إلى المدينة واحداً بعد الآخر وكان المسلمون يهاجرون سراً خوفاً من أن يلحق بهم بطش الكفار، إلا عمر بن الخطاب..





فكانت هجرته دونهم جميعاً علانية

فعن على رضى الله عنه قال: ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً إلا عمر بن الخطاب فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه، وتنكب قوسه، وانتضى فى يده أسهماً، واختصر عترته (أى ضمها إلى خاصرته وهى مثل نصف الرمح ولها سنان مثل سنان الرمح) ومضى قبل الكعبة، والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعاً، ثم أتى المقام فصلى ركعتين. ثم وقف على الحلق واحدة واحدة وقال لهم: شاهت الوجوه لا يرغم الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن تثكله أمه أو ييتم ولده، أو ترمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى.

منتهى الشجاعة.. ومنتهى التحدى من عمر بن الخطاب رضى الله عنه لمشركى قريش.

وكان من الذين هاجروا من مكة إلى المدينة عياش بن أبى ربيعة وقد قدم إليه فى المدينة أبو جهل والحارث بن هشام، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما فقالا لعياش: إن أمك قد نذرت ألا يمس رأسها مشط حتى تراك ولا تستظل من شمس حتى تراك.

فرق لهما عياش.. فقال له عمر بن الخطاب رضى الله عنه: يا عياش إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت فقال عياش:

أبر قسم أمي ولى هنالك مال فآخذه. أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له فى الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حبس أو فتن إلا على بن أبى طالب، وأبوبكر بن أبى قحافة رضى الله عنهما وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ فى الهجرة فيقول له: لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً، فيطمع أبو بكر أن يكون هو صاحبه وكان نفر من الأنصار قد بايعوا رسول الله ﷺ فى العقبة الثانية ثم رجعوا إلى المدينة فلما قدم أول من هاجر إلى قباء خرجوا إلى رسول الله ﷺ بمكة حتى قدموا مع أصحابه فى الهجرة.. وهم ذكوان بن عبد قيس وعقبة بن وهب بن كلدة، والعباس بن نضلة وزياد بن لبيد.

لما نزل قول الله تعالى.. بسم الله الرحمن الرحيم





﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (سورة الزمر)

كتبها سيدنا عمر بن الخطاب فى صحيفة بيده وبعث بعها إلى هشام بن العاص، فقال هشام: لما أتتنى جعلت أقرؤها بذى طوى (واد بمكة) أصعد بها فيه وأصوب ولا أفهمهما حتى قلت: اللهم فهمنيها..

فألقى الله تعالى فى قلبى أنها أنزلت فينا وفيما كنا نقول فى أنفسنا، فرجعت إلى بعيرى فجلست عليه فلحقت برسول الله ﷺ.

يقول ابن هشام:

حدثنى من أثق به أن رسول الله ﷺ قال وهو بالمدينة «من لى بعياش بن ربيعة وهشام بن العاص، فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة:

إنا لك يا رسول الله بهما.

فخرج الوليد إلى مكة فقدمها مستخفياً فلقى امرأة تحمل طعاماً فقال لها:

أين تريدين يا أمة الله؟

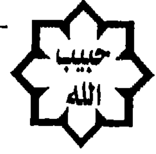
قالت: أريد هذين المحبوسين

وكانت المرأة تعنى عياش بن أبى ربيعة وهشام بن العاص، فتبعها الوليد حتى عرف بوضعهما وكانا محبوسين فى بيت لا سقف له، فلما أمسى تسور عليهما ثم أخذ مروة فوضعها تحت قيديهما (والمروة حجارة بيض براقة تقدح منها النار، وبها سميت المروة بمكة) ثم ضربهما الوليد بسيفه فقطع قيديهما ومن هنا كان يقال لسيفه (ذو المروة) ثم حملهما على بعيره وساق بهما فعثر فدميت إصبعه فقال:

هل أنت إلا إصبع دميت؟

وفى سبيل الله ما لقيت





ثم قدم بهما على رسول الله ﷺ ثم تتابع المهاجرون أفواجاً.

لما أراد صهيب الهجرة قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً حقيراً فكثر مالك عندنا وبلغت الذى بلغت ثم تريد أن تخرج بمالك وبنفسك؟

والله لا يكون ذلك.

فقال لهم صهيب:

أرأيت إن جعلت لكم مالى أتخلون سبيلى؟

قالوا: نعم..

قال: فإنى جعلت لكم مالى.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: ربح صهيب ربح صهيب.

لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ نزلوا فى الأنصار فى دورهم وآووهم ونصروهم وآسوهم وكان سالم مولى أبى حذيفة يؤم المهاجرين بقباء قبل أن يقدم النبى ﷺ .

لما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد كانت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم. ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا جواراً ومنعة توجسوا من خروج رسول الله ﷺ وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم فاجتمعوا له فى دار الندوة، وهى دار قصى بن كلاب التى كانت قريش لا تقضى أمراً إلا فيها. يتشاورون فيها ما يصنعون فى أمر النبى ﷺ. فاعترضهم إبليس عليه لعنة الله فى هيئة شيخ جليل، فوقف على باب الدار، فلما رأوه على بابها قالوا: من الشيخ؟

قال إبليس: شيخ من أهل نجد سمع بالذى اجتمعتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون وعسى ألا تعدموا منه رأياً ولا نصحاً.

قال الكفار: أجل فادخل

فدخل إبليس معهم فقال بعضهم لبعض وهم يتآمرون على رسول الله ﷺ : إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، وإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن قد اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأياً فتشاوروا.

ثم قال قائل منهم قيل إنه أبو البخترى بن هشام:

احبسوه فى الحديد، وأغلقوا عليه باباً، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله زهيراً والنابغة ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم.

فقال لهم إبليس لعنه الله:



لا والله ما هذا لكم برأى، والله لو حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعونه من أيديكم، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم. ما هذا لكم برأى فانظروا فى غيره قالوا: إذن نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا، فإذا خرج عنا فوالله ما نبالى أين ذهب ولا حيث وقع، إذا غاب عنا وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا والفتنا.

فقال إبليس معترضاً: لا والله ما هذا لكم برأى، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال مما يأتى به؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حى من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم، فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد. دبروا فيه رأياً غير هذا.

عندئذ قال أبو جهل بن هشام:

والله إن لى فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد: أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جلداً نسيباً وسيطاً، ثم نعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه بأجمعهم فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إن فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً.

أعجب القول إبليس وأيد أبو جهل وقال: القول ما قال الرجل، هذا الرأى لا أرى غيره وتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له.

فأتى جبريل رسول الله ﷺ فقال له: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه، وأخبره بمكر القوم، وأذن الله تعالى له بالخروج.. فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلى بن أبى طالب: نم على فراشى وتسج ببردى هذا الحضرمى الأخضر فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شىء تكرهه منهم. فلما اجتمعوا قال أبو جهل بن هشام:

إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن وإن أنتم لم تفعلوا كان فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم ناراً تحرقون فيها.

فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من تراب فى يده ثم قال: نعم أنا أقول ذلك





وأنت أحدهم. وأخذ الله عز وجل أبصارهم عنه فلا يرونه، فجعل يذرى ذلك التراب على رؤوسهم، وهو يتلو قول الله تعالى:

﴿ يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤) تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) ﴾ (سورة يس)

فلم يبق منهم رجل إلا وقد وضع رسول الله ﷺ على رأسه تراباً ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب لما خرج رسول الله ﷺ على المشركين الذين تآمروا على قتله وأخذ فى يده حفنة من التراب، وجعل يقرأ آيات من سورة يس إلى أن وصل إلى قوله تعالى «فأغشيناهم فهم لا يبصرون» وأتى المشركين واحد من قومهم لم يكن معهم فقال:

ما تنتظرون ها هنا؟

فقالوا له: محمداً فقال:

خيبكم الله قد والله خرج عليكم محمد ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً وانطلق لحاجته، أفما تنظرون ما بكم ووضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلعون فيرون علياً فى الفراش متسجياً ببرد رسول الله ﷺ فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائم عليه برده ولم يزالوا كذلك حتى أصبحوا، فقام على رضى الله عنه من الفراش فقالوا: والله لقد صدقنا الذى كان حدثنا وذهب رسول الله ﷺ إلى غار ثور وكان أن رسول الله ﷺ لما خرج على القوم المتآمرين أخذ يقرأ الآيات الأولى من سورة يس إذ يستحب قراءتها عند الخوف اقتداء برسول الله ﷺ.

وقد روى الحارث بن أبى أسامة فى مسنده عن النبى ﷺ فى ذكر فضل (يس) أنها إن قرأها خائف أمن أو جائع شبع أو عار كسى أو عاطش سقى حتى ذكر خلالاً كثيرة.

روى الحاكم عن على بن الحسين رضى الله عنه، قال: إن أول من شرى نفسه ابتغاء رضوان الله علىّ وقال فى ذلك شعراً:

وقيتُ بنفسى خيرَ من وطىء الحصى

ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجْرِ





رسولَ اللهِ خاف أن يمكروا به
فنجاه ذو الطولِ الإله من المكر
وبات رسول الله فى الغار آمناً
مُوقى وفى حفظ الإله وفى ستر
وبت أراعيهم وما يتهمونني
وقد وطنت نفسى على القتل والأسر

يقول ابن إسحق: كان مما أنزل الله عز وجل من القرآن فى ذلك اليوم وما كانوا أجمعوا له قوله تعالى:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ (سورة الأنفال)

وأنزل الله تعالى أيضاً قوله عز وجل:

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾ (سورة الطور)

ولكن ما الذى منع المشركين الذين تربصوا برسول الله ﷺ من أن يتقحموا على عليّ ابن أبى طالب رضى الله عنه وهو نائم مكان رسول الله ﷺ مع أنهم كانوا يظنونه الرسول، ولماذا ظلوا قياماً حتى أصبحوا؟

إن بعض أهل السير ذكروا السبب المانع من ذلك فقالوا: إنهم هموا بالدخول عليه فصاحت امرأة من الدار فقال بعضهم لبعض: والله إنها لسبة فى العرب أن تتحدث عنا أنا تسورنا الحيطان على بنات العم وهتكنا ستر حرمتنا وثمة أسباب أخرى ذكرها أهل السير.

لما أمر رسول الله ﷺ بالهجرة من مكة إلى المدينة نزل عليه قول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ (سورة الإسراء)

ويروى عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت: لم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه



رسول الله ﷺ طرفى النهار بكرة وعشية فبينما نحن يوماً جلوس فى بيت أبى بكر فى نحر الظهيرة.. قال قائل لأبى بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعاً فى ساعة لم يكن يأتينا فيها. وقال أبوبكر: فداء له أبى وأمى.. والله ما جاء به فى هذه الساعة إلا أمر.

تقول السيدة عائشة: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن. فأذن له فدخل.. فتأخر له أبو بكر عن سريره فجلس رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: يا رسول الله ما جاء بك إلا أمر حدث.

فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر: اخرج من عندك.

فقال أبو بكر: لا عين عليك إنما هما ابنتاى.. فقال عليه الصلاة والسلام: إن الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة.

فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله.. قال: نعم.

تقول السيدة عائشة: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكى يومئذ..

وتروى كتب السيرة كثيراً من الأحداث والمواقف التى وقعت خلال هذه الفترة وهى فترة التأهب للخروج من مكة فى الطريق إلى المدينة من ذلك مثلاً ذلك الحوار الذى دار بين رسول الله ﷺ وبين أبى بكر خاصاً بالراحلة التى يركبها رسول الله ﷺ أثناء هجرته فلقد عرض أبو بكر على رسول الله ﷺ أن يأخذ إحدى راحلتيه.

وقال له: يا رسول الله .. خذ إحد راحلتىّ هاتين.

فقال عليه الصلاة والسلام: بالثمن.. لا أركب بعيراً ليس هو لى.

قال أبو بكر: فهو لك.

فقال عليه الصلاة والسلام: لا.. ولكن بالثمن الذى ابتعتها به.

فقال أبو بكر: أخذتها بكذا.. وكذا

فقال ﷺ: أخذتها بذلك

فقال أبو بكر: هى لك

ثم استأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً لكى يكون دليلاً لهما.. ودفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما.





حكاية ذات النطاقين

إنهـا أسمـاء بنت أبى بكر تروى السيدة عائشة رضى الله عنهـا حكايتها فتقول: إنهم جهزوا لرسول الله ﷺ وأبى بكر جهازهما فى السفر وصنعوا لهما سفرة فى جراب فشقت أسماء بنت أبى بكر نطاقها قطعتين فأوكت [أى ربطت وغطت] بقطعة من الجراب - وشدت فم القربة بالثانى فسميت ذات النطاقين.

ويروى أن رسول الله ﷺ قال: إن لها نطاقين فى الجنة.

أعلم رسول الله ﷺ علياً بخروجه وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدى عنه الودائع التى كانت عنده للناس.

ولم يكن بمكة أحد عنده شىء يخشى عليه إلا وضعه عند رسول الله ﷺ لما يعلم من صدقه وأمانته..

ويروى أن رسول الله ﷺ قال: لقد خرجت من الخوخة (مكان بمكة) متنكراً فكان أول من لقينى أبو جهل فأعمى الله عز وجل بصره عنى وعن أبى بكر حتى مضينا.

تقول أسماء بنت أبى بكر: خرج أبو بكر بماله خمسة آلاف درهم.. وفى ذلك يقول البلاذرى: كان مال أبى بكر يوم أسلم أربعين ألف درهم فخرج إلى المدينة للهجرة وماله خمسة آلاف أو أربعة.

وتمضى أسماء فتقول: دخل علينا جدى أبو قحافة وقد ذهب بصره فقال:

والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه تقول أسماء.. فقلت له.. كلا يا أبت إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً.. ثم أخذت أحجاراً فوضعتها فى كوة فى البيت كان أبى يضع ماله فيها ثم وضعت عليها ثوباً ثم أخذت بيده فقلت: يا أبت ضع يدك على هذا المال، فوضع يده عليه، وقال:

لا بأس.. إن كان ترك لكم هذا فقد أحسن، وفى هذا بلاغ لكم.

تقول أسماء.. لا والله ما ترك لنا شيئاً ولكنى أردت أن أسكت الشيخ. لما خرج رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر فى طريقهما إلى غار ثور، جعل أبو بكر يمشى مرة أمام النبى ﷺ ومرة خلفه ومرة عن يمينه ومرة عن شماله - فسأله رسول الله ﷺ عن ذلك فقال:





يا رسول الله، أذكر الرصد فأكون أمامك، وأذكر الطلب فأكون خلفك، ومرة عن يمينك ومرة عن يسارك لآمن عليك.

إنه نموذج رائع للفداء والإخلاص والتفانى فى حب رسول الله ﷺ والاستعداد لفدائه..

وإن قصة الهجرة حافلة بآيات الحب والفداء وآية ذلك ما فعله أبو بكر عندما انتهى هو والنبى إلى فم الغار.

لقد قال أبو بكر للرسول ﷺ : والذى بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله قبلك، فإن كان فيه شيء نزل بى قبلك. ثم دخل أبو بكر الغار فجعل يتلمس بيده، وكلما دخل حُجْراً قام إلى ثوبه فشقه ثم ألقمه الجحر حتى فعل ذلك بثوبه أجمع، فبقى جحر، فوضع عقبيه عليه، ثم دخل رسول الله ﷺ ، فجعلت الحيات يلسعن أبا بكر رضى الله عنه وجعلت دموعه تنحدر.. ولما سأل رسول الله ﷺ أبا بكر قائلاً (أين ثوبك) أخبره أبو بكر بالذى صنع فرفع رسول الله ﷺ يديه وقال: اللهم اجعل أبا بكر معى فى درجتى فى الجنة، فأوحى الله إليه: قد استجاب الله سبحانه وتعالى لك.

وأنبت الله تعالى شجرة على باب الغار فحجبت عن الغار أعين الكفار، وبعث الله العنكبوت فنسجت خيوطها على باب الغار، وأمر الله حمامتين وحشيتين فوقفتا فى فم الغار، وأقبل فتيان قريش من كل بطن بعصيهم وهراويهم وسيوفهم حتى إذا كانوا من النبى ﷺ على أربعين ذراعاً جعل بعضهم ينظر فى الغار فلم ير إلا حمامتين وحشيتين بفم الغار فرجع إلى أصحابه فقالوا له:

ما لك؟

رأيت حمامتين وحشيتين فعرفت أنه ليس فيه أحد..

وكان النبى ﷺ قائماً يصلى وأبو بكر يرتقب، فقال أبو بكر: يا رسول الله هؤلاء قومك يطلبونك. أما والله ما على نفسى أبكى ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره فقال له النبى ﷺ : لا تخف إن الله معنا.

ويروى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال: قلت للنبى ﷺ ونحن فى الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لأبصرنا تحت قدميه، فقال عليه الصلاة والسلام: ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟





استأجر المشركون رجلاً يقال له علقمة بن كرز بن هلال الخزاعى، فقفا لهم الأثر حتى انتهى إلى غار ثور فقال:

هاهنا انقطع أثره ولا أدرى أخذ يميناً أم شمالاً أم صعد الجبل. فلما انتهى إلى فم الغار قال أمية بن خلف: ما أربكم فى الغار؟ إن عليه لعنكبوتاً كان قبل ميلاد محمد.

ودعا رسول الله ﷺ، فنزلت السكينة من الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٤٠﴾ (سورة التوبة)

لما مضت ثلاث ليال ورسول الله ﷺ فى الغار ومعه صاحبه أبو بكر رضى الله عنه، أتاهما صاحبهما الذى استأجراه فركبا وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل. وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة مولاه ليخدمها فى الطريق وأخذ بهما الدليل طريق الساحل أسفل من عُسفان ثم أجاز بهما حتى عادا من الطريق على لحج.. يقول محمد بن إسحق:

بلغنى أن رسول الله ﷺ لما خرج مهاجراً قال:

الحمد لله الذى خلقنى ولم أك شيئاً، اللهم أعنى على هول الدنيا وبوائق الدهر ومصائب الليالى والأيام، اللهم اصحبنى فى سفرى واخلفنى فى أهلى وبارك لى فيما رزقتنى، ولك فذللنى، وعلى صالح خُلُقى فقومنى، وإلى ربى فحببنى وإلى الناس فلا تكلنى أنت رب المستضعفين وأنت ربى، أعوذ بوجهك الكريم الذى أشرقت له السموات والأرض فكشفت به الظلمات وصلح عليه أمر الأولين والآخرين، أن يحل بى غضبك، أو ينزل علىّ سخطك، أعوذ بك من زوال نعمتك وفجاءة نقمتك وتحول عافيتك وجميع سخطك، لك العتبى خير ما استطعت، ولا حول ولا قوة إلا بك.

لما كان رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر ومولى أبى بكر عامر بن فهيرة ودليلهم مروا على خيمة أم معبد الخزاعية فسألوها لحماً وتمراً ليشتروه منها فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك، وقالت لهم: والله لو كان عندنا شىء ما أعوزناكم، فنظر رسول الله ﷺ إلى



شاة فى كسر الخيمة فقال: ما هذه الشاة يا أم معبد؟ فقالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم.

فقال رسول الله ﷺ: هل بها من لبن؟

قالت أم معبد: هى أجهد من ذلك

قال لها الرسول: أتأذنين لى أن أحلبها؟

قالت: بأبى أنت وأمى - إن رأيت بها حلباً فاحلبها فوالله ما ضربها فحل قط فشأنك بها.

فدعا بها رسول الله ﷺ ومسح بيده ضرعها وظهرها وسمى الله عز وجل ودعا لها فى شاتها، فدرت، ودعا بإناء يروى الرهط فحلب فيه حتى علاه الثمال، ثم سقاها حتى رويت، ثم سقى أصحابه حتى رووا، ثم شرب ﷺ آخرهم وقال ساقى القوم آخرهم شرباً، ثم حلب فيه ثانية حتى ملأ الإناء ثم غادره عندها وارتحلوا عنها..

وما لبث أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً حيالاً عجافاً، فلما رأى اللبن عجب فقال:

من أين لك هذا اللبن يا أم معبد والشاة عازب ولا حلوب فى البيت؟

قالت: لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك مسح بيده ضرع الشاة وظهرها وسمى الله عز وجل فدرت.

قال: صفيه لى يا أم معبد..

قالت: رأيت رجلاً طاهر الوضاءة، أبلج الوجه حسن الخَلْق، لم تعبه ثجلة ولم تزر به صعلة. وسيم قسيم، فى عينيه دعج وفى أشفاره وطف وفى صوته صحل وفى عنقه سطع، وفى لحيته كثافة، أزج أقرن، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سما وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاه من بعيد وأحلاه من قريب، حلو المنطق فصل لا نذر ولا هذر، كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن، ربعة لا تشنؤه من طول، ولا تقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين فهو أنضر الثلاثة منظراً وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفون به، إذا قال استمعوا لقوله وإذا أمر تبادروا إلى أمره، محفود محشود، لا عابس ولا مفند.



قال أبو معبد: هذا والله صاحب قريش الذى ذكر لنا من أمره بمكة ما ذكره، ولقد هممت أن أصحبه ولأفعلن إن وجد إلى ذلك سبيلاً.

روى ابن سعد وأبو نعيم عن أم معبد قالت: بقيت الشاة التى لمس رسول الله ﷺ ضرعها عندنا حتى كان زمان الرمادة وهى سنة ثمانى عشرة من الهجرة زمان عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وكنا نحلبها كلها صبوحاً وغبوقاً وما فى الأرض قليل ولا كثير.

لما يئس الكفار من الظفر برسول الله ﷺ وصاحبه جعلوا لمن يأتى به أو لصاحبه مائة ناقة عن كل واحد، سواء جاء به قتيلاً أو أسيراً.. يقول سراقة بن مالك: بينما أنا جالس فى مجلس من مجالس قومى أقبل رجل منهم قال:

يا سراقة. إنى قد رأيت آنفاً أسودة بالساحل أراها محمداً وأصحابه.

فأومأت إليه بعينى أن اسكت فسكت، ثم قلت له: إنهم ليسوا فيهم، ثم لبثت فى المجلس ثم قمت فدخلت بيتى فأمرت جاريتى أن تخرج بفرسى وهى من وراء أكمة فتحبسها علىّ، وأخذت رُمحى فخرجت به من ظهر البيت حتى أتيت فرسى فركبتها فرفعتها تقرب بى منهم فلما دنوت منهم عثرت بى فرسى فتخليت عنها ووضعت يدى على كنانتى فاستخرجت منها الأزلام، وكنت أرجو أن أرد محمداً ومن معه فآخذ المائة ناقة. فركبت فرسى وتعقبتهم حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت يدا فرسى فى الأرض، حتى بلغت الركبتين فخررت عنها: ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها حتى استوت قائمة وإذا نور ساطع فى السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذى أكره ألا أضرهم - فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع منى وأنه ظاهر، فناديتهم بالأمان قلت:

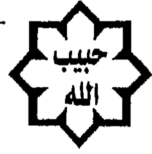
انظرونى فوالله لا آذيتكم ولا يأتيكم منى شىء تكرهونه.

فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر: قل له وما تبغى منا؟ فقلت: إن قومك قد جعلوا فيكما الدية وأخبرتهما أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع. فلم يسألانى شيئاً إلا أن قال: اخف عنا. فسألته أن يكتب لى كتاب موادعة آمن به فقال: اكتب له يا أبا بكر ثم مضى رسول الله ﷺ.

ورجع سراقة بن مالك إلى أصحابه،فلما رجع قال لقريش: قد عرفتم بصرى بالطريق، وقد استبرأت لكم فلم أر شيئاً.

عن قيس بن النعمان قال:





لما انطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر مستخفين مروا بعبد يرعى غنماً، فاستسقياه اللبن فقال: ما عندى شاة تحلب لقد حملت أول الشتاء وقد أخرجت (أى ولدت مولوداً ناقصاً) وما بقى لها من لبن.

فقال له رسول الله ﷺ قسم ضرعها حتى أنزلت، ودعا أبو بكر بإناء، فحلب وسقى أبا بكر، ثم حلب فسقى الراعى، ثم حلب فشرب فقال الراعى:

من أنت؟ فوالله ما رأيت مثلك قط فقال له رسول الله ﷺ: أو تراك تكتم علىّ حتى أخبرك؟ فقال الراعى: نعم

فقال له رسول الله ﷺ: فإنى محمد رسول الله

قال الراعى: أنت الذى تزعم قريش أنك صابىء

قال الرسول ﷺ: إنهم ليقولون ذلك

أشهد أنك نبى الله.. وأشهد أن ما جئت به حق.. وأنه لا يفعل ما فعل إلا نبى، ولما شارف رسول الله ﷺ المدينة لقيه أبو عبد الله بريدة بن الحصيب الأسلمى فى سبعين من قومه من بنى سهم فقال نبى الله ﷺ: من أنت؟ قال: بريدة

فقال لأبى بكر: برد أمرنا وصلح ثم قال النبى ﷺ: من أى قبيلة؟ قال: من أسلم. فقال النبى لأبى بكر: سلمنا..

ثم قال: من بنى من؟ قال: من بنى سهم.. قال: خرج سهمك يا أبابكر فقال بريدة للنبى ﷺ: من أنت؟

قال: أنا محمد بن عبدالله رسول الله. فقال بريدة: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأسلم بريدة وأسلم من كان معه جميعاً فقال بريدة:

الحمد لله الذى أسلم بنو سهم طائعين غير مكرهين.. فلما أصبح قال بريدة للنبى ﷺ: يا رسول الله لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء. وحل بريدة عمامته ثم شدها فى رمح ثم مشى بين يديه حتى دخلوا المدينة.

لما سمع المسلمون بالمدينة أن رسول الله ﷺ قد خرج من مكة وترقبوا قدومه كانوا يخرجون إذا صلوا الصبح إلى ظاهر الحرة ينتظرونه حتى تغلبهم الشمس على الظلال ويؤذيهم حر الظهيرة ثم يعودون، حتى كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله ﷺ حين دخلوا البيوت.. إذ صعد رجل من اليهود على أُطمِ من آطام المدينة لبعض شأنه فرأى رسول الله ﷺ أصحابه فصرخ بأعلى صوته:





يا بنى قيلة.. هذا صاحبكم قد جاء. هذا حبركم الذى تنتظرونه.

عندئذ بادر الأنصار إلى السلاح ليتلقوا رسول الله ﷺ وكبر المسلمون فرحاً بقدومه ومضوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة والتفوا من حوله وسار بهم حتى نزل بقباء من بنى عمرو بن عوف فنزل على كلثوم بن الهدم.

مسجد قباء:

عندما نذكر قباء يتبادر إلى الذهن على الفور مسجد قباء وهو أول مسجد أسس فى الإسلام وبناه رسول الله ﷺ قال كلثوم بن الهدم: وهو الذى نزل عليه رسول الله ﷺ فى قباء مربد (المربد هو المدفع الذى يبسط فيه التمر ليجف).

فأخذ رسول الله ﷺ هذا المربد من كلثوم بن الهدم فأسسه وبناه مسجداً ولكن ما الحكمة من اختيار المربد لكى يبنى عليه مسجد؟

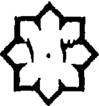
روى الطبرانى عن جابر بن سَمرة قوله:

لما سأل أهل قباء النبى ﷺ أن يبنى لهم مسجداً قال رسول الله ﷺ: ليقم بعضكم فيركب الناقة.. فقام أبو بكر رضى الله عنه فركبها فحركها فلم تنبعث فرجع فقعد فقام عمر رضى الله عنه فركبها فلم تنبعث فرجع فقعد فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: ليقم بعضكم فيركب الناقة فقام على رضى الله عنه، فلما وضع رجله فى غرز الركاب وثبت به قال له رسول الله ﷺ: ارخ زمامها وابنوا على مدارها

ويقول جابر بن سَمرة: إن علياً هو الذى ركب الناقة فى قباء والبعض يتعجب من ذلك ويقول: كيف؟ وعلىّ قد تخلف بمكة ولم يهاجر مع الرسول ﷺ

تقول كتب السيرة: لقد أقام على بمكة بعد خروج رسول الله ﷺ منها بضعة أيام قد تكون ثلاثة حتى أدى للناس ودائعهم التى كانت عند رسول الله ﷺ فلما أتم ذلك خرج على رضى الله عنه ولحق برسول الله ﷺ بقباء ونزل على كلثوم بن الهدم وتقول الشموس بنت النعمان رضى الله عنها وهى من المبايعات وقد حضرت مع النبى ﷺ حين أسس مسجد قباء:

نظرت إلى رسول الله ﷺ حين قدم ونزل وأسس هذا المسجد.. فرأيته يأخذ الحجر أو الصخرة حتى يهصره الحجر (أى يجذبه إليه) وأنظر إلى بياض التراب على بطنه أو سرته فيأتى الرجل من أصحابه ويقول: يا رسول الله بأبى أنت وبأمى أعطنى أكفك.. فيقول عليه الصلاة والسلام: لا خذ مثله حتى أسسه.





وكـان عبـدالله بن رواحـة يقـول وهم يبنون المسـجـد: أفلح من يعـمـرُ المسـاجـد.. فيقـول عليـه الصلاة والسـلام المسـاجد ثم يقول عـبدالله ويقرأ القرآن قائماً وقاعداً.

فـيقـول عليـه الصلاة والسلام: وقـاعـداً ثم يقـول عـبدالله: ولا يبيت الليل عنه راقداً فيقول ﷺ : راقداً

البعض يعتقد أن تحويل القبلة تم والمسلمون يصلون فى قباء..

ولقد صح أن رسـول الله ﷺ كـان يسـتـقـبل بيت المقدس حتى نسخ ذلك وعند صلاة الصبح وكـانت وجـوه المسلمين مـتـجـهـة صوب الشام أخبـرهم رسـول الله ﷺ بأمر تحـويل القبلة فاستداروا إلى الكعبة..

لما أراد رسـول الله ﷺ أن يدخل المدينة أرسل إلى بنى النجـار وكـانـوا أخواله فـجـاءوا مـتقلدين السـيـوف ودعـا رسـول الله ﷺ براحلتـه وحشـد المسلمـون ولبسوا السـلاح وركب رسـول الله ﷺ ناقـتـه القـصـواء والناس به عن يمينه وعن شـمـاله ومن خلفـه مـنـهـم الماشى ومنهم الراكب فاجتمعت بنو عمرو بن عوف. وقال أحدهم لرسول الله ﷺ :

يا رسول الله أخرجت قلاً لنا أم تريد داراً خيراً من دارنا ؟

فقال رسـول الله ﷺ : إنى أمرت بقرية تأكل القرى فحلوها يقصد ناقته فإنها مأمورة وخرج رسـول الله ﷺ من قبـاء يريد المدينة فتلقاه الناس فـخرجوا فى الطرق وصـار الناس يقولون:

الله أكبر جاءنا رسول الله، جاءنا محمد رسول الله: ثم أنشد الجموع:

طلع البـــدر علينا
من ثنيـــات الوداع
وجب الشكر علينا
مـــا دعـــا لله داع
أيها المبعـوث فـينا
جئت بالأمـر المطاع
جئت شرفت المدينة
مرحباً يا خير داع

ومضى ركْب رسـول الله ﷺ يشق طريقـه بين جمـوع المسلمين من الأنصـار ومن أهل





المدينة وحيث التهليل والتكبير.. وما مر على دار من دور الأنصار إلا قالوا له: هلم يا رسول الله إلى العز والثروة فيقول ﷺ: إنها مأمورة خلوا سبيلها.. ومر ببنى سالم فقام إليه عتبان بن مالك وقال له وهو آخذ بزمام راحلته:

يا رسول الله انزل فينا فإن فينا العدد والعشيرة والحلقة ونحن أصحاب الفضاء والحدائق والدرك يارسول الله قد كان الرجل من العرب يدخل هذه البُحرة (يعنى المدينة) خائفاً فيلجأ إلينا فنقول له قوقل حيث شئت (أى ادخل حيث شئت) فجعل رسول الله ﷺ يبتسم ويقول: خلوا سبيلها فإنها مأمورة.. فقام إليه عبادة بن الصامت وعباس بن نضلة بن العجلان فجعلا يقولان:

يا رسول الله انزل فينا

فيقول النبى ﷺ: بارك الله عليكم إنها مأمورة..

ثم أخذ رسول الله ﷺ عن يمين الطريق فلما رآه عبدالله بن أبى وهو يومئذ سيد الخزرج قال له: اذهب إلى الذين دعوك فانزل عليهم.

فقال سعد بن عبادة:

لا تجد يا رسول الله فى نفسك من قوله فقد قدمت علينا والخزرج تريد أن تملكه علينا فلما رد الله ذلك بالحق الذى أعطاك شَرِق بذلك ولكن هذه دارى.

ومر رسول الله ﷺ ببنى ساعدة فقال له سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو وأبو دمانة: هلم يا رسول الله إلى العز والثروة والقوة والجلد ـ ويقول سعد بن عباد: يا رسول الله ليس من قومى رجل أكثر نخلاً ولا فم بئر منى مع الثروة والجلد والعدد فيقول رسول الله ﷺ: يا أبا ثابت خل سبيلها فإنها مأمورة. ومضى عليه الصلاة والسلام فاعترضه سعد بن الربيع وعبدالله بن رواحة وبشير بن سعد فقالوا:

يا رسول الله لا تجاوزنا إنا أهل عدد وثروة وحلقة.

فيقول عليه الصلاة والسلام: بارك الله فيكم خلوا سبيلها فإنها مأمورة واعترضه زياد بن لبيد وفروة بن عمرو من بنى بياضة فقالا:

يا رسول الله هلم إلى المواساة والعز والثروة والعدد والقوة نحن أهل الدرك يا رسول الله.

فيقول عليه الصلاة والسلام: خلوا سبيلها فإنها مأمورة ثم مر ببنى عدى بن النجار وهم أخواله فقام أبو سليط وصرمة بن أبى أنس فى قومهما فقالا:





يا رسول الله نحن أخوالك

هلم إلى العدد والمنعة والقوة مع القرابة ولا تجاوزنا إلى غيرنا يا رسول الله ليس أحد من قومنا أولى بك منا لقرابتنا بك.

فقال رسول الله ﷺ : خلوا سبيلها فإنها مأمورة..

وسار حتى أتت دار بنى عدى بن النجار..

لما وصل رسول الله ﷺ إلى دار عدى بن النجار قامت إليه وجوههم فمضى وهو راكب ناقته فلما وصلت الناقة إلى موقع مسجده ﷺ بركت وهو عليها ثم وثبت وسارت غير بعيد ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها لا يثنيها به ثم التفتت خلفها فرجعت إلى مبركها أول مرة فبركت فيه والتصقت به وأرزمت (أى أحدثت صوتاً) وجعل جبار بن صخر ينخسها عسى أن تقوم فتنزل فى دار ابن سلمة فلم تفعل فنزل رسول الله ﷺ عنها وقال: هنا المنزل إن شاء الله وأوى رسول الله ﷺ إلى الظل فأتاه أبو أيوب الأنصارى وقال: يا رسول الله منزلى أقرب المنازل فانقل رحلك.

قال رسول الله ﷺ : نعم فذهب برحله إلى المنزل فأتاه آخر فقال: يا رسول الله انزل علىّ فقال رسول الله ﷺ : المرء مع رحله حيث كان فمضت مثلاً. ونزل رسول الله ﷺ فى دار أبى أيوب ونزل معه زيد بن حارثة وما أن استقر رسول الله ﷺ فى دار أبى أيوب حتى خرجت جوار من بنى النجار يضربن بالدفوف ويقلن:

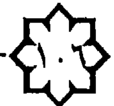
نحن جوارٍ من بنى النجار

يا حبذا محمد من جار

ويقول أبو أيوب الأنصارى:

لما نزل علىّ رسول الله ﷺ فى بيتى نزل فى السفل وأنا وأم أيوب فى العلو

فقلت له: يا نبى الله بأبى أنت وأمى إنى لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتى فاظهر أنت وكن فى العلو وننزل نحن فى السفل فقال ﷺ : ارفق بنا وبمن يغشانا أن نكون فى سفل البيت فكان رسول الله ﷺ فى سفله وكنا فوقه فى المسكن، ولقد انكسر إناء لنا فيه ماء. فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء خوف أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شىء فيؤذيه.





وقد ذكر أن أبا أيوب لم يزل يتضرع إلى النبى ﷺ حتى تحول عليه الصلاة والسلام إلى العلو وأبو أيوب فى السفل..

ويمضى أبو أيوب فيقول عن النبى عليه الصلاة والسلام: كنا نصنع له العشاء ثم نبعث به إليه فإذا رد علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه نبتغى بذلك البركة.

قيل لأم أيوب: أى الطعام كان أحب إلى رسول الله ﷺ فإنكم عرفتم ذلك لمقامه عندكم فقالت:

ما رأيته أمر بطعام فصنع له بعينه ولا رأيناه أُتِى بطعام فعابه، وكنا نعمل له الهريس وكانت تعجبه وكان يحضر عشاءه خمسة إلى ستة عشر كما يكون الطعام فى الكثرة والقلة.

ويقول ابن إسحق:

بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه وسودة بنت زمعة زوجته وحمل زيد بن حارثة امرأته أم أيمن مع ابنها أسامة بن زيد وخرج عبدالله بن أبى بكر بعيال أبى بكر وفيهم عائشة وأختها أسماء زوج الزبير وأم رومان أم عائشة فلما قدموا المدينة أنزلوا فى بيت حارثة النعمان..

وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله ﷺ فلم يبق بمكة منهم أحد إلا مفتون أو محبوس ولقد أحب رسول الله ﷺ المدينة وكان يدعو ويقول: اللهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً حسناً وكان يقول أيضاً:

اللهم أحبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة.

لما أراد رسول الله ﷺ أن يبنى مسجده فى المدينة، أرسل إلى بنى النجار فقال: يا بنى النجار ثامنونى بحائطكم هذا.

فقالوا: والله لا نطلب ثمنه إلا من الله

وكان موضع المسجد مِربداً ليتيمين هما سهل وسهيل ابنا رافع بن أبى عمرو، فدعا بالغلامين وساومهما بالمِربد ليتخذه مسجداً.. فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله فأبى أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ثم بناه مسجداً.



عن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ قالت: بنى رسول الله ﷺ مسجده فقرّب اللبن، وما يحتاجون إليه، فقام رسول الله ﷺ بوضع ردائه، فلما رأى ذلك المهاجرون الأولون والأنصار ألقوا أرديتهم وأكسيتهم وجعلوا يرتجزون ويعملون ويقولون:

لئن قعدنا والنبىُّ يعملُ
ذاك إذن للعملُ المضلَّلُ

مما يروى فى قصة بناء مسجد رسول الله ﷺ ما كان من عثمان بن مظعون، وكيف كان رجلاً مرفهاً يخاف على ثيابه من أن ينالها غبار اللّبن وهو يحمله مشاركة فى بناء المسجد فكان يحمل اللبنة فيبعدها عن ثوبه، فإذا وضعها نفض كمه ونظر إلى ثوبه.. فإذا أصابه شىء من التراب نفضه. وقد لفت ذلك نظر على بن أبى طالب رضى الله عنه فنظر إليه وأنشد يقول:

لا يستوى من يعمر المساجد
يدأب فيها قائماً وقاعداً
ومن يُرى من الغبار حائرا

فسمعها عمار بن ياسر فجعل يرتجز بها وهو لا يدرى من يعنى بها، فمر بعثمان بن مظعون فقال له عثمان وبيده عصا: يا ابن سمية، ما أعرفنى بمن تعرض ـ لتكفن أو لأعترضن بها وجهك.

سمعه رسول الله ﷺ فغضب لذلك فكف الناس عن عمار.. ثم قالوا لعمار: يا عمار ـ إن النبى ﷺ قد غضب منك ونخاف أن ينزل فينا قرآنه.. فقال عمار:

أنا أرضيه كما غضب

فتوجه عمار إلى رسول الله ﷺ وقال:

يا رسول الله ﷺ: ما لى ولأصحابك؟

فقال رسول الله ﷺ: ما لك ولهم.

فقال عمار: يريدون قتلى، يحملون لبنة لبنة ويحملون علىّ لبنتين لبنتين.

فأخذ رسول الله ﷺ بيد عمار وطاف به المسجد وجعل يمسح رأسه بيديه من التراب ويقول:



«يا ابن سمية، للناس أجر، ولك أجران، ليسوا بالذين يقتلونك، تقتلك الفئة الباغية، تدعوهم إلى الجنة ويدعونك إلى النار».

فيقول عمار: أعوذ بالله من الفتن

روى يحيى بن الحسن عن أسامة بن زيد ـ رضى الله عنهما ـ عن أبيه قال: خرج رسول الله ﷺ، ومعه حجر فلقيه أسيد بن حضير فقال: يا رسول الله: أعطينيه.. أعطينيه

فقال رسول الله ﷺ: اذهب فاحتمل غيره فإنك لست بأفقر إلى الله مني.

وبنى رسول الله ﷺ حول مسجده الشريف حُجراً لتكون مساكن له ولأهله، وكانت مساكن قصيرة البناء قريبة الفناء، وكانت مبنية من جريد عليه طين، وبعضها من حجارة مرصوصة، وسقفها كلها من جريد.

وكذلك كان مسجده ﷺ فقد كان مبنياً من اللبن وسقفه بالجريد وعمده من خشب النخل.



الأذان

حدّث أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ حين قدم المدينة إنما كان يجمع الناس للصلاة بغير دعوة فلما كثر الناس اهتم النبى ﷺ : كيف يجمع الناس للصلاة فاستشار الناس فقيل له: يا رسول الله انصب راية عند حضور الصلاة إذا رأوها أعلم بعضهم بعضاً

أو فاستخدم البوق يا رسول الله

فقال عليه الصلاة والسلام: هو من أمر اليهود

قيل: إذن يا رسول الله فلنستخدم الناقوس

فقال عليه الصلاة والسلام: هو من أمر النصارى

قالوا: ماذا لو رفعنا ناراً يا رسول الله

فقال ﷺ: ذلك للمجوس

عندئذ قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: تبعثون رجلاً ينادى بالصلاة، فقال رسول الله ﷺ : يا بلال قم فناد بالصلاة

وانصرف عبدالله بن زيد وهو مُهتمّ لِهَمّ رسول الله ﷺ فأرى الأذان فى منامه وفى ذلك يقول عبدالله بن زيد: طاف بى وأنا نائم رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً فى يده فقلت له: يا عبدالله اتبع هذا الناقوس؟

قال: وما تصنع به؟

قلت: ندعو به إلى الصلاة فقال:

تقول: الله أكبر الله أكبر أشهد ألا إله إلا الله أشهد ألا إله إلا الله .. أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله حى على الصلاة حى على الصلاة الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله

فقام على المسجد فأذن ثم استأخر عنى غير بعيد. ثم قال:

تقول إذا أقيمت الصلاة: الله أكبر الله أكبر أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، حى على الصلاة حى على الفلاح قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله.

فلما أصبحت أتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما رأيت.. ولولا أن يقول الناس لقلت





إنى كنت يقظان غير نائم.. فقال رسول الله ﷺ : إنها لرؤيا حق إن شاء الله تعالى لقد أراك الله خيراً فمر بلالاً فليؤذن فإنه أندى منك صوتاً فقمت مع بلال فجعلت ألقيه عليه ويؤذن به فسمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه فخرج يجر رداءه وهو يقول: والذى بعثك بالحق يا رسول الله لقد رأيت مثل الذى رأى.

فقال رسول الله ﷺ لعمر: ما منعك أن تخبرنى؟ فقال عمر:

سبقنى عبدالله بن زيد فاستحييت. فقال عليه الصلاة والسلام: «فلله الحمد»

روى مسلم عن سهيل بن أبى صالح قال: أرسلنى أبى إلى بنى حارثة ومعى غلام لنا فنادى مناد من حائط باسمه فأشرف الغلام على الحائط فلم ير شيئاً فذكرت ذلك لأبى فقال:

لو شعرت أنك تلقى هذا لم أرسلك ولكنى سمعت صوتاً ينادى للصلاة فإنى سمعت أبا هريرة يحدث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الشيطان إذا نودى بالصلاة ولّى وله حصاص والحصاص هو شدة العدو وجدته» وروى البيهقى عن عمر بن الخطاب أنه قال: إذا تغولت لأحدكم الغيلان فليؤذن فإن ذلك لا يضره.

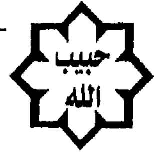
المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

كان رسول الله ﷺ حريصاً على أن يؤاخى بين أصحابه وقد كانت المؤاخاة مرتين الأولى بين المهاجرين بعضهم بعضاً قبل الهجرة على الحق والمواساة.. والثانية فى المدينة بعد الهجرة بين المهاجرين والأنصار على الحق والمواساة ويتوارثون بعد الممات دون ذوى الأرحام.

المؤاخاة الأولى

كانت المؤاخاة التى تمت قبل الهجرة بين أصحاب رسول الله ﷺ على الحق والمواساة وقد آخى النبى ﷺ بين أبى بكر وعمر وبين حمزة وزيد بن حارثة. يقول زيد بن حارثة: إن رسول الله ﷺ آخى بينى وبين حمزة بن عبدالمطلب وبين عثمان وعبدالرحمن بن عوف وبين الزبير بن العوام وابن مسعود وبين عبيدة بن الحارث وبلال وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبى وقاص وبين عبيدة وسالم مولى أبى حذيفة وبين سعد بن أبى زيد وطلحة ابن عبيد الله وبين على بن أبى طالب ونفسه ﷺ.





ويقول ابن عمر رضى الله عنهما: آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه حتى بقى على رضى الله عنه تدمع عيناه فقال: يا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بينى وبين أحد فقال رسول الله ﷺ: أما ترضى أن أكون أخاك؟ قال: بلى يا رسول الله رضيت قال: فأنت أخى فى الدنيا والآخرة.

المؤاخاة الثانية

أما المؤاخاة الثانية فقد كانت بالمدينة بعد الهجرة وقد آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار على الحق والمواساة وأن يتوارثوا بعد الممات. دون ذوى الأرحام، وفى ذلك يقول أنس بن مالك رضى الله عنه:

قال المهاجرون: يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة فى قليل ولا أحسن بدلاً فى كثير لقد كفونا المؤونة وأشركونا فى المهنأ حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله.

ولقد أحكم الله تعالى فى القرآن الكريم ذلك العقد الذى عقده رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار فى قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤)﴾ (سورة الأنفال)

وبموجب ذلك يتوارث الذين آخوا دون من كان مقيماً فى مكة من ذوى الأرحام والقرابات ومكث الناس على ذلك العقد ما شاء الله، فلما كان بعد بدر أنزل الله تعالى قوله:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)﴾ (سورة الأنفال)





وهنا انقطعت المؤاخاة فى الميراث ورجع كل إنسان إلى نسبه وورثه ذوو رحمه وبلغ حب من آخى رسول الله ﷺ بعضهم بعضاً أن عرض الواحد منهم على أخيه أن يناصفه أهله وماله يقول أنس رضى الله عنه: إن رسول الله ﷺ آخى بين عبدالرحمن بن عوف وسعد بن الربيع فعرض سعد على عبدالرحمن أن يناصفه أهله وماله وقال سعد: أنا أكثر أهل المدينة مالاً فأقسم لك نصف مالى وانظر أى زوجتى هويت نزلت لك عنها فإذا حلت تزوجتها.

فقال عبدالرحمن: بارك الله عز وجل لك فى أهلك ومالك.

عندما قدم رسول الله ﷺ المدينة كان بها رجل يدعى الحصين بن سلام بن الحارث وقد أسلم على يدى رسول الله ﷺ وغيّر اسمه الرسول من الحصين إلى عبدالله بن سلام بن الحارث وهو رجل من ذرية سيدنا يوسف عليه السلام وكان يهودياً ثم أصبح أنصارياً ويروى عبدالله بن سلام قصة إسلامه فيقول: لما سمعت برسول الله ﷺ وعرفت صفته واسمه وهيأته وزمانه الذى كنا نتوقعه وكنت مسراً بذلك صامتاً عليه حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة فلما قدم نزل بقباء فى بنى عمرو بن عوف فأقبل رجل حتى أخبر بقدومه وأنا فى رأس نخلة لى، أعمل فيها وعمتى خالدة بنت الحارث تحتى جالسة فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبّرت فقالت عمتى حين سمعت تكبيرى: لو كنت سمعت بموسى بن عمران ما زدت فقلت لها أى عمة: إنه أخو موسى بن عمران وعلى دينه بعث بما بعث به موسى قالت عمتى: يا ابن أخى أهو النبى الذى كنا نخبر بأنه سيبعث؟

قلت: نعم

قالت: فذاك إذن ويضيف عبدالله بن سلام: فخرجت إلى رسول الله ﷺ فلما تبينت وجهه عرفت أنه ليس بوجه كذاب فكان أول شىء سمعته يقول:

أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام.

وأسلم عبدالله بن سلام وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله.. ثم رجع إلى أهل بيته فأمرهم فأسلموا وكتم إسلامه ثم خرج إلى رسول الله ﷺ فقال:

يا رسول الله إن اليهود قد علمت أنى سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم



وإنهم قوم بهت وإنهم إن يعلموا بإسلامى قبل أن تسألهم عنى بهتونى وقالوا فىّ ما ليس فى فأحب أن تدخلنى بعض بيوتك..

وأدخله رسول الله ﷺ بعض بيوته وأرسل إلى اليهود فدخلوا عليه فقال: يا معشر يهود يا ويلكم اتقوا الله فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنى رسول الله قد جئتكم بالحق فأسلموا.. فقالوا: ما نعلمه؟ فقال: أى رجل فيكم الحصين بن سلام؟

قالوا: خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا فقال: أرأيتم إن أسلم؟

قالوا: أعاذه الله من ذلك.. فقال: يا ابن سلام أخرج إليهم فخرج عبدالله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله يا معشر اليهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به فوالله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله حقاً تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة اسمه وصفته فإنى أشهد أنه رسول الله وأومن به وأصدقه وأعرفه فقالوا له: كذبت أنت شرنا وابن شرنا.

فقال عبدالله بن سلام:

هذا الذى كنت أخاف يا رسول الله ألم أخبرك أنهم قومٌ بهت أهل غدر وكذب وفجور..

ويقول عبدالله بن سلام:

وأظهرت إسلامى وإسلام أهل بيتى.. وأسلمت عمتي خالدة بنت الحارث وحسن إسلامها.

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال:

كنت أمشى مع رسول الله ﷺ فى حرث المدينة وهو متكىء على عسيب إذ مر به نفر من اليهود فقال بعضهم لبعض:

سلوه عن الروح

وقال آخر: لا تسألوه حتى لا يسمعكم ما تكرهون

فقام إليه رجل يهودى فقال:

يا محمد ما الروح؟

كيف تعذب الروح وهى فى الجسد؟



فما زال رسول الله متكئاً على العسيب فعلمت أنه يوحى إليه فتأخرت فلما نزل الوحى قال عليه الصلاة والسلام:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٨٥﴾ ﴾ (سورة الاسراء)

فقالوا: هكذا نجده فى كتابنا..

فقال يهودى: لقد قلنا لكم لا تسألوه

جاء أحبار اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا له:

يا محمد بلغنا أنك تقول «وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً أفعنيتنا أم عنيت قومك؟»

فقال رسول الله ﷺ: لا بل عنيتكم فقالوا:

إنك تتلو التوراة وفيها تبيان كل شيء فقال رسول الله ﷺ: هى فى علم الله قليل، وقد أتاكم الله ما إن عملتم به انتفعتم وأنزل الله عز وجل قوله:

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (سورة لقمان)

مر أبو ياسر بن أخطب برسول الله ﷺ وهو يتلو فاتحة البقرة «الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين» فأتى أخاه حيى بن أخطب فى رجال من يهود فقال: تعلموا.. والله لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل عليه (الم ذلك الكتاب).

فقال يهودى: أنت سمعته؟

قال حيى: نعم

ومشى حيى بن أخطب فى أولئك النفر من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا له:

يا محمد يُذكر لنا إنك تتلو فيما أنزل عليك الم ذلك الكتاب؟

فقال رسول الله ﷺ: بلى

قالوا: أجاءك بها جبريل من عند الله؟

قال عليه الصلاة والسلام: نعم

قالوا: لقد بعث الله قبلك أنبياء ما نعلمه بيّن لنبى منهم مدة مَلكه وما أجل أمته غيرك؟



فقام حيى بن أخطب وأقبل على من معه فقال لهم:

الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون فهذه إحدى وسبعون سنة. أفتدخلون فى دين نبى إنما مدة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة؟

ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال:

يا محمد هل مع هذا غيره؟

قال رسول الله ﷺ: نعم

قالوا: ماذا؟

قال عليه الصلاة والسلام: الف لام ميم صاد (الأعراف)

قال حيى: هذا أثقل وأطول الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون فهذه إحدى وستون ومئة.

قال حيى: هذا أثقل وأطول الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون سنة فهل مع هذا غيره يا محمد؟

فقال عليه الصلاة والسلام: نعم، ألف لام راء.. (يوسف)

قال حيى: هذه أثقل وأطول الألف واحدة واللام ثلاثون والراء مائتان فهذه إحدى وثلاثون ومئتا سنة فهل مع هذا غيره يا محمد؟

فقال عليه الصلاة والسلام: نعم، ألف لام ميم راء

قال حيى: هذه والله أثقل وأطول: الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والراء مئتان فهذه إحدى وسبعون ومئتا سنة.. لقد لُبِّس علينا أمرك يا محمد حتى ما ندرى أقليلاً أعطيت أم كثيراً.

كان شاس بن قيس شيخاً عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم فمر على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية فلما أن جاء الإسلام اصطلحوا وألف الله بين قلوبهم فقال: لقد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار ثم أمر فتى شاباً من اليهود كان معه

فقال له: اذهب إليهم فاجلس معهم ثم أذكر يوم بُعاث وما كان فيه وأنشدهم بعض ما كانوا يقولون فيه من الأشعار...



ففعل الفتى ذلك وأنشدهم بعض ما قاله أحد الحيين فى حربهم فرد أفراد الحى و الآخر ببعض ما قاله شعراؤهم واحتدم الموقف بينهم حتى تواثب رجلان من الحيين أحدهما أوس بن قيظى من الأوس والآخر جبار بن صخر من الخزرج فقال الأول:

إن شئتم جعلناها حرباً بيننا

وقال الآخر: موعدكم الظاهرة... السلاح السلاح [والظاهر هى الأرض ذات الحجارة السود] وخرج الفريقان للقتال وأوشكت الأوس والخزرج أن ترتدا إلى ما كانت عليه فى الجاهلية.

بلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم فقال:

يا معشر المسلمين الله الله أبدعوة الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر.. وألف به بينكم فترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً؟

وعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا، وعانقه الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدوهم عدو الله شاس بن قيس وأنزل الله تعالى قوله:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ (سورة آل عمران)

وأنزل الله تعالى آيات فى أوس بن قيظى وجبار بن صخر ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا وكادوا أن يشعلوا نار الفتنة بين الأوس والخزرج كما أراد شاس بن قيس الذى كان من عتاة الكفر يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ (سورة آل عمران)

تروى كتب السيرة الكثير من مواقف العنت والمجادلة التى تعرضت لها الدعوة على يد المنافقين واليهود لكن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا لهم بالمرصاد وكان الوحى يتنزل على رسول الله ﷺ ليكشف أمرهم ويدحض دعواهم.

لما نزل قول الله تعالى «من ذا الذى يقرضُ اللهَ قرضاً حسناً» دخل أبو بكر الصديق بيت «المدراس» وهو البيت الذى يدرس فيه اليهود ما يتعلق بديانتهم فوجد اليهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له (فنحاص): وكان من علمائهم وأحبارهم قال له أبو بكر رضى الله عنه:

ويلك يا فنحاص اتق الله عز وجل وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة فقال فنحاص: لعنه الله والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله فقر وإنه إلينا لفقير وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا وإنا عنه لأغنياء وما هو عنا بغنى، ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا أموالنا كما يزعم صاحبكم ينهاكم عن الربا ويعطيناه ولو كان عنا غنياً ما أعطانا الربا غضب أبو بكر من تخرصات فنحاص وتطاوله على الله عز وجل فضرب وجهه ضربة شديدة وقال: والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينك لضربت عنقك أى عدو الله وذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ وقال:

يا محمد انظر ما فعل بى صاحبك

فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر: ما حملك على ما صنعت؟

فقال أبو بكر: يا رسول الله إن عدو الله قال قولاً عظيماً إنه زعم أن الله عز وجل فقير وأنهم عنه أغنياء فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجهه فأنكر ذلك فنحاص وقال:

كلا يا محمد ما قلت ذلك فأنزل الله تبارك وتعالى قرآناً رداً على كذب فنحاص وتصديقاً لأبى بكر رضى الله عنه:

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ (سورة آل عمران)

ونزل فى أبى بكر الصديق وما بلغه فى ذلك من غضب قول الله تعالى:

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ (سورة آل عمران)



جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف ومعه جماعة إلى رسول الله ﷺ وقال له: يا أبا القاسم ألا تأتينا بكتاب من السماء كما جاء به موسى ألواحاً؟

فنزل قول الله تعالى:

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ ﴾. (سورة النساء)

وكان مالك بن الصيف حبراً سميناً فقال له رسول الله ﷺ: أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى أما تجد فى التوراة أن الله يبغض الحبر السمين؟ فغضب مالك وقال: ما أنزل الله على بشر من شىء.

فغضب منه أصحابه وقال له قائلهم: ويحك ولا على موسى؟

قال مالك: والله ما أنزل الله على بشر من شىء

فأنزل الله عز وجل قوله تعالى:

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ (سورة الأنعام)

روى ابن سعد عن عائشة رضى الله عنها، والواقدى عن أبى سعيد الخدرى، أنه نزل فرض رمضان بعدما فُرضت القبلة إلى الكعبة بشهر، وكان ذلك فى شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من هجرة رسول الله ﷺ. ثم فرضت زكاة المال بعد فرض الصيام.

وقد أمر رسول الله ﷺ بزكاة الفطر قبل أن تفرض الزكاة فى الأموال وأن تخرج عن الصغير والكبير، والحر والعبد والذكر والأنثى. وكان رسول الله ﷺ يخطب قبل الفطر بيومين، فيأمر بإخراجها قبل أن يغدو إلى المصلى، ويقول: اغنوهم - يعنى المساكين - عن طواف هذا اليوم.

أقام رسول الله ﷺ بالمدينة عشر سنين، وكان يُضحِّى فى كل عام.





فكان ﷺ إذا صلى صلاة عيد الأضحى، اشترى كبشين سمينين أقرنين أملحين، فإذا صلى وخطب يؤتى بأحدهما وهو قائم فى مصلاه فيذبحه هو بيده بالمدية ثم يقول هذا عن أمتى جميعاً، من شهد لك بالتوحيد وشهد لى بالبلاغ. ثم يؤتى بالآخر فيذبحه هو عن نفسه ثم يقول: هذا عن محمد وآل محمد. فيأكل هو وأهله منه ويطعم المساكين.

غزوة بدر:

من الأحداث الهامة التى وقعت فى السنة الثانية من الهجرة غزوة بدر العظمى، وكانت بدر أول غزوة خرج فيها الأنصار، وقاتل فيها المسلمون وانتصروا نصراً باهراً مع قلة عددهم وعُدتهم وكثرة عدوهم، وفيها أظهر الله الدين وقويت شوكة المسلمين.

لقد بلغ رسول الله ﷺ قدوم أبى سفيان من الشام ومعه ثلاثون أو أربعون رجلاً بتجارة قريش، فخرج عليه الصلاة والسلام فى اليوم التاسع من رمضان سنة اثنتين من الهجرة ومعه رجال من المهاجرين والأنصار لاعتراض قافلة قريش، فبلغ أبا سفيان ذلك فبعث إلى أهل مكة يستفزهم لنصرته.

وقدم أبو جهل فى خمسين وتسعمائة رجلاً ولم يتخلف من بطونهم إلا بنو عدى، ولا من أشرافهم إلا أبو لهب فلقد استأجر مكانه العاص بن هشام «الذى قُتل فى بدر».

عندما بلغ الرسول ﷺ الروحاء فى الجنوب الغربى للمدينة، وعلم أن قريشاً قد عزمت على الحرب استشار أصحابه فى طلب العير أو حرب قريش، وكانت العير أحب إليهم.

فنزل قول الله تعالى:

﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ (سورة الأنفال)

فتكلم أبو بكر ثم عمر ثم قال المقداد بن الأسود:

يا رسول الله، امض لما أمرك الله، فوالله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون. ولكن امض ونحن معك عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك.

وسُرّ رسول الله ﷺ بقول المقداد وقال: أشيروا علىّ أيها الناس، فقال سعد بن عبادة من الأنصار:



أيا ما يريد رسول الله ، والذى نفسى بيده لو أمرتنا أن نخوض البحر لخضناه وسر النبى عليه الصلاة والسلام بقوله وقال: أبشروا فإن الله وعدنى إحدى الطائفتين، والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم.

لما علمت قريش أن الحرب لا بد واقعة ـ سار أبو سفيان بالعير على الساحل ونجا وأشار على قريش بالرجوع، أما أبو جهل فقال:

لا نرجع حتى نرد ماء بدر، ونقيم به ثلاثاً، وتهابنا العرب.

وسار أبو جهل حتى نزل بعدوة بدر القصوى وهى الجهة البعيدة عن المدينة وتقع فى أرض سهلة لينة.

وقد نزل المسلمون بالعدوة الدنيا بعيداً عن الماء فى أرض سبخة فأصبحوا عطاشاً وبعضهم جُنب فأنزل الله الماء فشربوا وتطهروا وصلحت الأرض وتوحلت أرض العدو. وفى ذلك يقول الله تعالى:

﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾ (سورة الأنفال)

ثم نظر رسول الله ﷺ قريشاً فوجدها مقبلة.

نظر رسول الله ﷺ إلى قريش وقال: اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذى وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض. وما زال رسول الله ﷺ رافعاً يديه سقط رداؤه.

ثم جلس رسول الله ﷺ هو وأبو بكر فى عرش بُنِىَ لهما ، وقبل أن تقوم الحرب خرج من قريش الأسود بن عبد الأسود فقتله حمزة رضى الله عنه. ثم برز من العدو عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة فخرج إليهم عوف ومعوذ ابنا الحارث وأمهما عفراء وعبدالله بن رواحة فقال قائل قريش:

من أنتم؟

قال عوف: رهط من الأنصار.

قال عتبة: إنما نريد كفاءنا من قريش.

وكأنهم يريدون أن يقاتلوا المهاجرين فأخرج لهم رسول الله ﷺ عمه حمزة، وعلى بن أبى طالب وعبيدة بن الحارث. فقتل حمزة شيبة، وقتل علىّ الوليد، ثم قتلا عتبة، ثم





احتملا عبيدة وقد قطعت رجله فبشره النبى ﷺ بالشهادة ثم مات رضى الله عنه. واحتدم القتال فخرج رسول الله ﷺ محرضاً على القتال، وأخذ حفنة من الحصباء رمى بها قريشاً وقال: شاهت الوجوه ثم قال لأصحابه: شدوا عليهم. وانتصر المسلمون وهزموا قريشاً وقتلوا سبعين منهم. وأسروا سبعين.

وكان من القتلى أمية بن خلف والجراح، ولقد قتله ابنه أبو عبيدة.

وكان من الأسرى العباس وعقيل بن أبى طالب وغيرهم.

وكان عدد شهداء المسلمين أربعة عشر، ستة من المهاجرين منهم عمير بن أبى وقاص، وثمانية من الأنصار منهم ابنا عفراء الخزرجيان، وسعد بن خثيمة الأوسى. وقد أمر رسولُ الله ﷺ بدفن شهداء المسلمين، وأمر رسول الله ﷺ بقذف أربعة وعشرين من صناديد قريش فى بئر بدر ودفن الباقى.

عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة، وفى اليوم التالى جىء بالأسرى ففرقهم بين الصحابة وقال لهم: استوصوا بهم خيراً.

هذا هو خلق الإسلام.. الرسول ﷺ استشار أصحابه فيهم. وهذا تأكيد لمبدأ الشورى فى الإسلام.

وجاء رأى أبو بكر رضى الله عنه مناسباً لما عرف عنه من سماحة وطيبة فقد قال للرسول ﷺ : استبقهم يا رسول الله وخذ منهم الفداء.

أما عمر بن الخطاب وهو الرجل الشديد القوى رضى الله عنه فقد قال: قتلهم يا رسول الله نضرب أعناقهم.

وكان على الرسول إذن أن يختار بين أحد الرأيين.

ولقد كان رسول الله ﷺ أميل إلى رأى أبى بكر، فقال عليه الصلاة والسلام لأبى بكر: مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: فمن تبعنى فإنه منى، ومن عصانى فإنك غفور رحيم «ومثل عيسى قال» إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم..

وقال لعمر: مثلك يا عمر مثل نوح قال «رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً» ومثل موسى قال: «ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم».





إذن فقد أخذ النبى ﷺ برأى أبى بكر وأخذ من الأسرى الفداء.. لكن الله تبارك وتعالى عاتب النبى ﷺ ونزل قوله تعالى:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ (سورة الأنفال)

وفى غزوة بدر كان عدد المشركين أكبر من عدد المسلمين. وكان المشركون أكثر عدة وعتاداً من المسلمين. ومع ذلك انتصر المسلمون.

لقد نصر الله المؤمنين بقوة إيمانهم وصلابتهم، وبما أمدهم به من الملائكة يقاتلون معهم، وفى ذلك يقول المولى عز وجل:

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (سورة آل عمران)

هذه الآيات جاءت فى سورة آل عمران وثمة آيات أخرى فى سورة الأنفال منها قوله تعالى:

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ (سورة الأنفال)

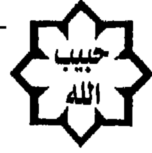
ويقول أيضاً:

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ (سورة الأنفال)

عن مقتل أبى جهل:

قتل عدو الله أبو جهل فى معركة بدر.

وعن مقتله يقول عبدالرحمن بن عوف:



بينما أنا واقف فى الصف يوم بدر فنظرت عن يمينى وشمالى، فإذا بغلامين من الأنصار حديثة أسنانهم [أى أعمارهم] فغمزنى أحدهما فقال:

يا عم هل تعرف أبا جهل؟

قلت: نعم، ما حاجتك إليه يا ابن أخى؟

قال: أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ، والذى نفسى بيده لئن رأيته لا يفارق سوادى سواده حتى يموت الأعجل منا.

قال عبدالرحمن بن عوف: تعجبت لذلك، فغمزنى الغلام الآخر فقال لى مثلها، فلم ألبث أن نظرت إلى أبى جهل يجول فى الناس، فقلت:

ألا إن هذا صاحبكما الذى سألتمانى.

فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه.

ولكن من هما هذان الغلامان اللذان قتلا الرجل؟

قيل: إن أحدهما معاذ بن عمرو بن الجموح وقد قطع رجل أبى جهل وصرعه، أما الثانى فهو معاذ بن عفراء وقد ضربه وما زال به رمق، ثم أتاه عبدالله بن مسعود فاجتز رأسه.

يقول عبدالله بن مسعود:

وضعت رجلى على عنقه فقلت: أخزاك الله يا عدو الله. ثم اجتززت رأسه فجئت به رسول الله ﷺ فقلت: هذا رأس عدو الله أبى جهل. فقال عليه الصلاة والسلام: متسائلاً والله الذى لا إله إلا هو؟ فحلفت له، فأخذ بيدى ثم انطلق حتى أتاه فقام عنده فقال الحمد لله الذى أعز الإسلام وأهله. ثلاث مرات.

وفى السنة الثانية من الهجرة تزوج على بن أبى طالب فاطمة بنت رسول الله ﷺ وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله أمرنى أن أزوج فاطمة من على.

وتوالت بعد بدر غزوات المسلمين وسراياهم، ومنها غزوة بنى قينقاع وغزوة السويق وسرية محمد بن مسلمة، وجاءت السنة الثالثة من الهجرة وفيها وقعت غزوة «نجد» وغزوة «نجران» وسرية زيد بن حارثة. ثم وقعت غزوة أحد وكانت يوم السبت فى النصف من شوال سنة ثلاث من الهجرة بالاتفاق.





غزوة أحد

وتستوقفنا غزوة أحد. فإن فيها الكثير من الدروس والعبر.

لقد أرادت قريش أن تثأر لهزيمتها فى غزوة بدر، فاجتمعت لحرب رسول الله ﷺ، وكتب العباس بن عبدالمطلب كتاباً يخبر فيه رسول الله ﷺ بخبرهم.

فكانت قريش إذن هى البادئة.

وقد سار بهم أبو سفيان حتى نزلوا ببطن الوادى من قبل أُحد فى مواجهة المدينة، وكان رجال المسلمين قد أسفوا على ما فاتهم من شهود معركة بدر، وكان رسول الله ﷺ قد أُرى فى منامه رؤيا أحب لأجلها المكوث فى المدينة وقال لأصحابه: امكثوا، فإنه إن دخل القوم الأزقة قاتلناهم ورموا من فوق البيوت. فقال له القوم:

يا رسول الله كنا نتمنى هذا اليوم، اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنا جبنا عنهم. وصلى عليه الصلاة والسلام بالناس الجمعة، ثم وعظهم وأمرهم بالجد والاجتهاد، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم ففرح الناس بذلك. ثم دخل عليه الصلاة والسلام بيته، ثم خرج، وقد لبس لأمته وتقلد سيفه وقال: ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه.

عقد رسول الله ﷺ ثلاثة ألوية، لواء للمهاجرين بيد على بن أبى طالب كرم الله وجهه. واللواء الثانى للخزرج بيد الحباب بن المنذر. والثالث للأوس بيد أسيد بن حضير رضى الله عنهم جميعاً.

وكان المسلمون ألف رجل أما المشركون فكانوا ثلاثة آلاف.

هذا من حيث العدد أما الموقف من حيث العدة والعتاد فقد كان فى المسلمين مائة دارع وفى المشركين سبعمائة دارع بالإضافة إلى مائتى فرس وثلاثة آلاف بعير وكان مع المشركين أيضاً خمس عشرة امرأة. وقد خرج رسول الله ﷺ فى السحر وخرج أمامه السعدان يعدوان أمامه.

والسعدان هم سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رضى الله عنهما وكان دارعين. واستعمل رسول الله ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم، وعلى الحرس فى تلك الليلة محمد بن مسلمة. ونزل رسول الله ﷺ بأُحد.

لكن عبدالله بن أبى كان قد أقفل راجعاً من الطريق فى ثلاثمائة ممن تبعه من أهل





النفاق ولم يكمل السير نحو أحد. ونزل رسول الله ﷺ بأحد، واصطف المسلمون فى أصل أحد، بينما اصطف المشركون بالسبخة، فكان على ميمنة خيل المشركين خالد بن الوليد ولم يكن قد أسلم بعد. وكان على ميسرة خيل المشركين عكرمة بن أبى جهل. وجعل رسول الله ﷺ على الرماة وكانوا خمسين رجلاً. عبدالله بن جبير وقال لهم: لا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، واحموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نقبل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا. ووقعت المعركة.

وانتصر المسلمون، وقتل من المشركين عدد كبير وأخذ المسلمون يطاردون المشركين بالسيوف حتى أجلوهم عن مكانهم، ووقعت بهم الهزيمة وولى الكفار لا يلوون على شيء ونساؤهم يدعون بالويل، وتبعهم المسلمون حتى أجهدوهم، واستولوا على ما كان لديهم من الغنائم، لكن الرماة عندما رأوا انتصار المسلمين واستيلاءهم على الغنائم، نسوا وصية رسول الله ﷺ فقالوا: الغنيمة الغنيمة. فقال لهم عبدالله بن جبير:

أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ ؟

فقالوا له: والله لنأتين الناس، فلنصيبن من الغنيمة. فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين، ونظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل وقلة أهله فكر بالخيل، وتبعه عكرمة بن أبى جهل فحملوا على ما بقى من الرماة فقتلوهم وأميرهم عبدالله بن جبير.

وشدد المشركون حصارهم للمسلمين، وقتل حمزة بن عبدالمطلب، وكان مصعب بن عمير يقاتل دون رسول الله ﷺ حتى قتل، وارتبكت صفوف المسلمين وارتدت طائفة منهم نحو المدينة وتفرق الباقون، لكن رسول الله ﷺ ثبت حتى انكشفوا عنه وثبت معه من أصحابه أربعة عشر رجلاً، سبعة من المهاجرين منهم أبو بكر الصديق وسبعة من الأنصار وأصيب من المسلمين سبعون رجلاً فقام أبو سفيان فنادى متسائلاً:

أفى القوم محمد؟ [ثلاث مرات].

لكن رسول الله ﷺ نهى أصحابه أن يجيبوه. ثم قال أبو سفيان فنادى متسائلاً:

أفى القوم ابن أبى قحافة؟ [ثلاث مرات].

ونهى رسول الله ﷺ أصحابه أن يجيبوه. ثم قال أبو سفيان فنادى متسائلاً:

أفى القوم ابن الخطاب؟ [ثلاث مرات].

عندئذ رجع أبو سفيان إلى أصحابه فقال:

أما هؤلاء فقد قتلوا.





فلم يملك عمر بن الخطاب نفسه فرد عليه قائلاً: كذبت يا عدو الله، إن الذى عددت لأحياء كلهم، وقد بقى لك ما يسؤوك فقال أبو سفيان:

يوم بيوم بدر والحرب سجال.

فقد كانت هزيمة المشركين فى بدر ما زالت غصة فى حلوق المشركين.

ظل رسول الله ﷺ ومن بقى معه من أصحابه صامدين، ورمى عبدالله بن قمئة عليه لعنة الله رسول الله ﷺ فشج وجهه وكسرت رباعيته، فأخذ على بيده واحتضنه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً، وجعل الرسول يجفف دمه ويقول: لو وقع منه شيء على الأرض لنزل عليهم العذاب من السماء، ثم قال عليه الصلاة والسلام: اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون فلا عجب. وتلك هى أخلاق رسول الله ﷺ، يدعو للمشركين بالمغفرة وقد اعتدوا عليه!!

وهو يقول هذا بينما اشتغل المشركون بقتلى المسلمين يمثلون بهم.

وكان قد قتل من الكفار ثلاثة وعشرون ومنهم أبى بن خلف الذى قتله رسول الله ﷺ بيده الشريفة على أن أبا سفيان لما أراد الانصراف أشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته:

الحرب سجال. يوم بيوم بدر، اعل هبل.

فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رضى الله عنه: أجبه. فقال عمر: الله أعلى وأجل. فقال أبو سفيان مخاطباً آلهتهم:

أنعمت؟

فقال عمر: لا سواء، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار.

فقال أبو سفيان: إن لنا العُزى، ولا عُزى لكم.

فقال عليه الصلاة والسلام: قولوا الله مولانا ولا مولى لكم. فلما انصرف أبو سفيان نادى بأعلى صوته.

موعدكم بدر العام القابل.

فقال عليه الصلاة والسلام لرجل من أصحابه قل: نعم بيننا وبينكم موعد. ونظر رسول الله ﷺ إلى حمزة وقد بقرت بطنه عن كبده وجدع أنفه وأذناه فلم ينظر إلى شيء أوجع لقلبه منه وقال: رحمة الله عليك، فقد كنت فعولاً للخير وصولاً للرحم. وكان ممن



مُثّل به كما مُثّل بحمزة ابن أخته عبد الله بن جحش، وقد دفن معه فى قبر واحد.

ولما أشرف رسول الله ﷺ على قتلى المسلمين قال: أنا شهيد على هؤلاء، وما جرح فى الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه، اللون لون الدم، والريح ريح المسك.

عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال رسول الله ﷺ لما أصيب إخوانكم بأحد: جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة ونأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا فى الجهاد وينكلوا عن الحرب ـ فقال: «أنا أبلغهم عنكم» فأنزل الله تعالى على نبيه:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ (سورة آل عمران)

غزوة بنى النضير

بعد أن انتهت غزوة أحد، توالت السرايا والغزوات ابان السنة الرابعة من الهجرة، فكانت سرية عاصم بن ثابت إلى الرجيع، وسرية المنذر بن عمرو إلى بئر معونة ثم وقعت غزوة بنى النضير.

وبنو النضير قبيلة كبيرة من اليهود وسميت الغزوة باسمها.

وكانت فى ربيع الأول سنة أربع من الهجرة.

فقد خرج رسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه منهم أبو بكر وعمر وعلى رضى الله عنهم يستعين ببنى النضير فى دية رجلين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى فقال له قائلهم:

يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت.

ولكنهم كانوا يضمرون غير ما يقولون، فلقد هموا بإلقاء صخرة عليه، ليقتلوه ﷺ.

ونهاهم سلام بن مشكم فلم ينتهوا فقال لهم:

لا تفعلوا فوالله ليخبرن بما هممتم، وإنه لنقض للعهد.

وأتى الرسول الخبر من السماء بما أراد القوم فقام عليه الصلاة والسلام مظهراً أنه يقضى حاجة، ورجع مسرعاً إلى المدينة وتبعه أصحابه فأخبرهم بما أرادت اليهود من الغدر به، وأمر ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم،



ثم سار بالمسلمين حتى نزل بهم فحاصرهم اليهود ست ليال فتحصنوا منه بالحصون، وقذف الله فى قلوبهم الرعب. ثم سألوا رسول الله ﷺ أن يأذن لهم بالخروج ـ فأذن لهم وتولى إخراجهم محمد بن مسلمة، فكانوا يخربون بيوتهم بأيديهم. وحملوا النساء والصبية ورحلوا على ستمائة بعير حتى لحقوا بخيبر.

ووقعت بعد ذلك غزوة ذات الرقاع ثم غزوة بدر الصغرى.

غزوة بدر الصغرى

نتوقف عند غزوة بدر الصغرى

وهل كانت هذه الغزوة تنفيذاً لموعد أبى سفيان فى نهاية غزوة أحد عندما قال: موعدكم بدر العام القابل، فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه قل: نعم بيننا وبينكم موعد؟

ففى السنة الرابعة من الهجرة. لما قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة من غزوة ذات الرقاع أقام بها جمادى الأولى إلى آخر رجب، ثم خرج فى شعبان إلى بدر لميعاد أبى سفيان ـ وكان مع رسول الله ﷺ ألف وخمسمائة من أصحابه وعشرة أفراس واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة عبد الله بن رواحة.

ولقد أقام رسول الله ﷺ على بدر ثمانية أيام ينتظرون أبا سفيان، لكن أبا سفيان عاد بالناس من منطقة تسمى عسفان قبل أن يصل إلى بدر.

غزوة الخندق

ولما كان شهر شوال من السنة الرابعة من الهجرة بلغ رسول الله ﷺ تحزب قبائل العرب بإغراء من حيى بن أخطب من بنى النضير وآخرين لمهاجمة المدينة فأشار سلمان الفارسى على رسول الله ﷺ بحفر خندق شمال المدينة، وهى الجهة التى خاف دخول العدو منها ، فحفر المسلمون الخندق وقاسوا فى حفره صعوبات كثيرة واشترك رسول الله ﷺ فى حفر الخندق بيديه الكريمتين.

كان رسول الله ﷺ يشارك المسلمين فى حفر الخندق ويكابد معهم وينقل التراب بنفسه حتى وارى الغبار بشرته، وكان يتمثل بقول عبد الله بن رواحة:

والله لولا الله ما اهتدينا.

ولا تصدقنا ولا صلينا





فــأنزلـن سكـينة علـينا
وثبت الأقـدام إن لاقـيا
إن الألى قد بغـوا علينا
إذا أرادوا فــتنة أبينا

ولما رأى رسول الله ﷺ ما بالمسلمين من النَّصَب قال:

اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر اللهم للأنصار والمهاجرة فأجابه أحد المسلمين بقوله نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً وفى أثناء حفر الخندق وقعت آيات من آيات نبوته ﷺ وفى ذلك يقول البراء أحد شهود حفر الخندق: حين أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق عرضت لنا صخرة لا تأخذ فيها المعاول، فاشتكينا ذلك للنبى ﷺ، فجاء فأخذ المعول فقال بسم الله ثم ضرب ضربة فنشر ثلثها، وقال الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام والله إنى لأبصر قصورها الحمر الساعة. ثم ضرب الثانية فقطع ثلثاً آخر، فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس، وإنى والله لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن، ثم ضرب الثالثة فقال بسم الله، فقطع بقية الحجر، فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إنى لأبصر أبواب صنعاء فى مكانى الساعة.

فكيف كانت وقائع غزوة الخندق؟

لما تم حفر الخندق أقبلت الأحزاب، فخرج بنو غطفان من الشرق فى ألف رجل، وخرجت قريش وكنانة فى عشرة آلاف يقودهم أبو سفيان، وانضم إليهم بنو قريظة ناقضين العهد، وخرج النبى ﷺ فى ثلاثة آلاف رجل بينهم وبين العدو الخندق.

كان المشركون أكثر عدداً من المسلمين.

وكان الفرق بينهم فى العدد كبيراً، وقد ترامى الفريقان بالنبل نيفاً وعشرين ليلة اشتد فيها الحصار على المسلمين حتى اضطرب ضعاف الدين وفى ذلك يقول الله تعالى:

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ (الأحزاب)

فماذا يفعل رسول الله ﷺ إزاء هذا الموقف؟

لقد أراد رسول الله ﷺ أن يصالح عُيينة بن حصن وهو من قادة غطفان على ثلث



ثمار المدينة، واستشار سعد بن عبادة وسعد بن معاذ في ذلك، فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا وهؤلاء على الشرك، وهم لا يطمعون منا بتمرة إلا قرى، فحين أكرمنا الله بالإسلام وأعزنا بك نعطيهم أموالنا، والله لا نعطيهم إلا السيف.

وأخذ رسول الله ﷺ برأى سعد بن معاذ.

وعندما أقحم جماعة من العدو خيلهم ناحية الخندق ومنهم عمرو بن عبد ود، وكان عمره تسعين سنة، فبارزه على بن أبى طالب فقتله، ومنهم عكرمة بن أبى جهل، فحمل عليه فألقى رمحه وولى منهزماً، ومنهم نوفل بن عبد الله المخزومى الذى سقط فى الخندق فقتله على، وأصيب من المسلمين سعد بن معاذ فى أكحله. فقال:

اللهم لا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة. ودارت المعركة سجالاً بين المسلمين والمشركين عند الخندق، وقتل عدد من المشركين وأصيب من المسلمين سعد بن معاذ، ثم جاء من بين جيش العدو نعيم بن مسعود الأشجعى، وقال للنبى ﷺ:.

يا رسول الله إنى قد أسلمت، وإن قومى لم يعلموا بإسلامى فمرنى ما شئت.

فقال رسول الله ﷺ : إنما أنت واحد فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة، فتوجه نعيم بن مسعود إلى بنى قريظة وقال لهم:

إن العرب إن لم ينصروا ينصرفوا ويتركوكم ومحمداً، ولا طاقة لكم به، فاتخذوا منهم رهائن كى لا ينصرفوا حتى يناجزوا محمداً وصدقه القوم، ثم توجه إلى قريش وقال لهم: إن اليهود قد ندموا، وباطنوا محمداً، ووعدوه أن يأخذوا منكم رهائن ليسلموهم له فيقتلهم.

ثم توجه نعيم بن مسعود الى غطفان وأخبرهم بمثل ذلك، فلما أصبحوا طلبت العرب من بنى قريظة الخروج للحرب فاعتذروا بالسبت، وأنهم لا يخرجون معهم حتى يأخذوا منهم رهائن، فصدقوا كلام نعيم واقتنعوا بأن حديثه لهم صادق، فتفرقت كلمة أعداء المسلمين وأصابهم الوهن والخذلان والفرقة. هكذا نجحت الحيلة التى أشار بها رسول الله ﷺ على نعيم بن مسعود لأن الحرب خدعة كما قال رسول الله ﷺ.

وقد دعا النبى ﷺ عندئذ ربه فقال: اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم واستجاب الله لرسوله ﷺ.





لقد أرسل الله تعالى عليهم ريحاً فى برد شديد، فزلزلتهم، وأسقطت خيامهم، وجالت الخيل فى بعضها، حتى قالوا: النجاة النجاة وقام أبو سفيان فيهم فقال:

يا معشر قريش .. إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، فقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذى نكره، ولقينا من هذه الريح ما ترون، والله ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك بنا بناء، فارتحلوا فإنى مرتحل.. فارتحلوا ولما سمعت غطفان بما فعلت قريش انهزموا راجعين إلى بلادهم تاركين متاعهم فغنمه المسلمون وانصرفوا منصورين.

وكان نصر المسلمين فى غزوة الخندق أو كما تعرف غزوة الأحزاب فى يوم الأربعاء لسبع بقين من ذى القعدة سنة أربع من الهجرة.

ولقد استشهد فى هذه الفترة ستة من الأوس وثلاثة من الخزرج.

وقتل من المشركين ثلاثة، لكن الله تعالى هزمهم شر هزيمة ونصر المسلمين نصراً عزيزاً

وتمضى الأيام والسنون، وتتوطد أركان دولة الإسلام، وتبدأ السنة الخامسة من الهجرة، وتشهد هذه السنة غزوة دومة الجندل وغزوة بنى المصطلق. وغزوة بنى قريظة وبنو قريظة هم الذين ظاهروا قريشاً وأعانوهم على حرب رسول الله ﷺ ونقضوا العهود والمواثيق التى كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ فما أجدى ذلك عنهم شيئاً وباءوا بغضب من الله ورسوله وفيهم قال الله تعالى:

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (سورة آل عمران)

لما رجع رسول الله ﷺ عن الخندق ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل عليه السلام، فقال له: قد وضعت السلاح؟ قال النبى ﷺ: والله ما وضعناه فقال جبريل عليه السلام: فاخرج إليهم، فقال رسول الله ﷺ: فإلى أين؟ فقال جبريل: هاهنا وأشار إلى بنى قريظة فبعث رسول الله ﷺ منادياً ينادى:





يا خيل الله اركبى

يا خيل الله اركبى

وأمر رسول الله ﷺ بلالاً فأذن فى الناس منادياً: من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة.

غزوة بنى قريظة

استجاب رسول الله ﷺ لدعوة جبريل عليه السلام بحرب بنى قريظة وخرج إليهم وكان ذلك لسبع بقين من ذى القعدة فى السنة الخامسة من الهجرة، وتقلد رسول الله ﷺ السلاح والدرع وحف به أصحابه وكانت الخيل ستة وثلاثين فرساً، وسار رسول الله ﷺ حوله الخيل والرجالة وكان معه ثلاثة آلاف من المسلمين.

تروى كتب السيرة أن نفراً من المهاجرين والأنصار سبقوا النبى ﷺ إلى بنى قريظة وكان على رأسهم على بن أبى طالب رضى الله عنه وفيهم أبو قتادة وعن ذلك يتحدث أبو قتادة فيقول: انتهينا إلى بنى قريظة فلما رأونا أيقنوا بالشر وغرز علىّ الراية عند أصل الحصن فاستقبلونا فى صياصيهم يشتمون رسول الله ﷺ وأزواجه وسكتنا وقلنا: السيف بيننا وبينكم، وانتهى رسول الله ﷺ إلى بنى قريظة، فنزل قريباً من حصنهم، فلما رآه على رضى الله عنه رجع إلى رسول الله ﷺ وأمرنى أن ألزم اللواء فلزمته، وكره أن يسمع رسول الله ﷺ أذاهم وشتمهم، فقال لرسول الله ﷺ: لا عليك ألا تدنوا من هؤلاء الأخابيث، فإن الله تعالى كافيك اليهود فقال له رسول الله ﷺ : لم تأمرنى بالرجوع؟ فكتمه على ما سمع، فقال له الرسول: أظنك سمعت منهم لى أذى، فقال على: نعم يا رسول الله فقال الرسول ﷺ : لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئاً.. وسار رسول الله ﷺ إليهم وتقدمه أسيد بن الحضير وقال لهم:

يا أعداء الله .. لا نبرح عن حصنكم حتى تموتوا جوعاً، إنما أنتم بمنزلة ثعلب فى جحر فقال أحدهم: يا ابن الحضير، نحن مواليك دون الخزرج قال: لا عهد بينى وبينكم إلاً ولا ذمة، ودنا رسول الله ﷺ ونادى بأعلى صوته نفراً من أشرافهم حتى أسمعهم فقال: أجيبوا يا إخوة القردة والخنازير وعبدة الطاغوت، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟ أتشتموننى؟

فجعلوا يحلفون ما فعلنا ويقولون:-





يا أبا القاسم ما كنت جهولاً ولا فاحشاً واجتمع المسلمون عند رسول الله ﷺ عشاء، وبعث سعد بن عبادة رضى الله عنه بأحمال تمر لرسول الله ﷺ والمسلمين فكان طعامهم، وقال رسول الله ﷺ يومئذ «نعم الطعام التمر» وحاصر المسلمون بنى قريظة خمساً وعشرين ليلة حتى أجهدهم الحصار وقذف الله فى قلوبهم الرعب فأرسلوا نباش بن قيس إلى رسول الله ﷺ فقال: إنا نعرض عليك أن ننزل على نزلت عليه بنو النضير من الأموال والحلقة (أى السلاح) ونحقن دماءنا ونخرج من بلادك بالنساء والدرارى، ولنا ما حملت الإبل إلا الحلقة.

أبي رسول الله ﷺ ذلك فقال نباش: فهل تحقن دماءنا وتسلم لنا النساء والذرية ولا حاجة لنا فيما حملت الإبل.

وأبى رسول الله ﷺ إلا أن ينزلوا على حكمه عاد نباش إلى قومه بنى قريظة وأخبرهم أن رسول الله ﷺ يأبى إلا أن ينزلوا على حكمه، فقام كعب بن أسد وتحدث فى قومه قائلاً:

يا معشر بنى قريظة .. والله قد نزل بكم من الأمر ما ترون وإنى عارض عليكم خلالاً ثلاثاً فخذوا ما شئتم منها.

فتساءلوا: وما هى؟

قال : نبايع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم أنه نبى مرسل، وأنه الذى تجدونه فى كتابكم فتأمنون به على دمائكم وأموالكم ونسائكم، والله إنكم لتعلمون أن محمداً نبى، وما منعنا من الدخول معه إلا الحسد للعرب لكن بنى قريظة أبوا هذا الرأى. فقال لهم كعب: إذا أبيتم علىّ هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف لم نترك وراءنا ثقلاً حتى يحكم الله بيننا وبين محمد،فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه، وأن نظهر فلعمرى لنجدن النساء والأبناء.

فقال رجل من بنى قريظة: أنقتل هؤلاء المساكين؟! فما خير العيش بعدهم فقال كعب ابن أسد: فإن أبيتم علىّ هذه فإن الليلة ليلة السبت، وعسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها فأنزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة.

فاستنكر البعض ذلك وقالوا: أنفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يحدث فيه من كان قبلنا إلا من قد علمت فأصابه المسخ عند ذلك، فقال كعب: ما بات رجل منكم منذ





ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً.

فتصدى لهم عمرو بن سعدى وقال لهم: يا معشر يهود، إنكم قد حالفتم محمداً على ما حالفتموه عليه، فنقضتم عهده الذى كان بينكم وبينه فلم أدخل فيه، ولم أشرككم فى غدركم، فإن أبيتم أن تدخلوا معه فاثبتوا على اليهودية وأعطوا الجزية فوالله ما أدرى يقبلها أم لا. فقال واحد منهم: نحن لا نقر للعرب بجرح فى رقابنا يأخذونه، القتل خير من ذلك.

عندئذ تبرأ عمرو بن سعدى منهم وخرج فى تلك الليلة فمر بحرس رسول الله ﷺ وعليهم محمد بن مسلمة فقال ابن مسلمة:

من هذا؟

قال: عمرو بن سعدى.

فقال محمد بن مسلمة: مر(أى ادخل) اللهم لا تحرمنى إقالة عثرات الكرام.

وخلى سبيله وخرج حتى أتى مسجد رسول الله ﷺ، فبات به حتى أصبح، فلما أصبح غدا ولم يدر أين هو، فذكر شأنه لرسول الله ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام: ذاك رجل نجاه الله بوفائه.

واشتد حصار المسلمين لبنى قريظة فلما جهدهم الحصار نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، وأمر رسول الله ﷺ بأسرهم فكتفوا رباطاً، وجعل على كتافهم محمد بن مسلمة ونحوا ناحيته، ثم أخرجوا النساء والذرية من الحصون فكانوا ناحية واستعمل عليهم عبدالله بن سلام، وجمعت أمتعتهم وما وجد فى حصونهم من العتاد والأثاث والثياب .. ووجدوا فيها ألفاً وخمسمائة سيف، وثلاثمائة درع، وألفى رمح وألفاً وخمسمائة من التروس، وأثاثاً كثيراً وآنية كثيرة وخمراً وجرار سكر ووجد من الجمال النواضح عدداً كبيراً ومن الماشية شيئاً كثيراً، فجمع هذا كله. وأذعنوا على أن ينزلوا على حكم سعد ابن معاذ سيد الأنصار فيهم.

فقال سعد بن معاذ: إنى أحكم فيهم أن يقتل كل من جرت عليه الموسى، وتسبى النساء والذرية، وتقسم الأموال وتكون الديار للمهاجرين دون الأنصار.

فقال رسول الله ﷺ لسعد بن معاذ: لقد حكمت فيهم بحكم الله الذى حكم به من فوق سبع سموات.





وتبدأ السنة السادسة من الهجرة وتتوالى الغزوات والسرايا، وفى هذا العام وقعت غزوة الحديبية والحديبية قرية على بعد تسعة أميال من مكة.

غزوة الحديبية

لم يكن رسول الله ﷺ عندما سار إلى الحديبية قاصداً الغزو وفتح مكة وتروى كتب السيرة أن رسول الله ﷺ أرى أنه دخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين وأنه دخل البيت.

إذن فقد كان قاصداً العمرة

ولذلك فقد خرجت معه زوجته أم سلمة وخرج معه ألف وأربعمائة من المسلمين بلا سلاح إلا سلاح المسافر.. واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم لما كان بذى الحليفة قلد الهدى وأشعر وأحرم منها بعمرة ليأمن الناس.. ويعلموا أنه إنما خرج زائراً للبيت ومعظماً له ـ وانطلقت حناجر المسلمين بالتلبية.

وبعث رسول الله ﷺ بسر بن سفيان ليكون عيناً له، ويعرف أخبار قريش، وهل سيمنعونه من دخول البيت.. فعاد بسر بن سفيان إلى رسول الله ﷺ وقال له:

يا رسول الله إن قريشاً قد أجمعوا لك جموعاً وهم مقاتلوك وصادوك عند البيت ومانعوك.

فقال رسول الله ﷺ : أشيروا علىّ أيها الناس، أترون أن أميل إلى عيالهم وذرارى هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله، خرجت عامراً لهذا البيت لا تريد قتل أحد، ولا حرب أحد فتوجه له، فمن صدك عنه قاتلناه، فقال رسول الله ﷺ : امضوا على اسم الله وقال: والذى نفسى بيده لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها. وروى البيهقى عن عروة قال:

لما نزل رسول الله ﷺ الحديبية فزعت قريش لنزوله إليهم، فأحب أن يبعث إليهم رجلاً من أصحابه فدعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى قريش فقال: يا رسول الله قد عرفت قريش عداوتى لها، وإن أحببت يا رسول الله دخلت عليهم، ولكنى أدلك على رجل أعز بمكة منى، وأكثر عشيرة وأمنع، عثمان بن عفان. فدعا رسول الله ﷺ عثمان وقال له: اذهب إلى قريش وأخبرهم أنا لم نأت لقتال، وإنما جئنا عماراً وادعهم إلى الإسلام.

وأتى عثمان أشراف قريش رجلاً رجلاً فجعلوا يردون عليه: إن محمداً لا يدخلها





علينا أبداً .. ولما فرغ عثمان من رسالة رسول الله ﷺ إلى قريش قالوا: له:

إن شئت أن تطوف بالبيت فطف

فقال عثمان: ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ ثم دعت قريش سهيل بن عمرو وقالوا: اذهب إلى محمد فصالحه وأمسك رسول الله ﷺ سهيل بن عمرو عنده وأمسك المشركون عثمان بن عفان، فغضب المسلمون وبلغ النبى ﷺ أن عثمان قد قتل، فدعا الناس إلى بيعة الرضوان تحت الشجرة ونادى المنادى: أيها الناس - البيعة البيعة، تنزل روح القدس فاخرجوا على اسم الله وأقبل المسلمون تحت الشجرة يبايعون رسول الله ﷺ ووضع النبى عليه الصلاة والسلام شماله فى يمينه وقال: هذه عن عثمان. ولما سمع المشركون بهذه البيعة خافوا وبعثوا بعثمان - وفي هذه البيعة نزل قول الله تعالي:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ (سورة الفتح)

روى عن سهيل بن حَنيف قوله:

لما قدم عثمان بن عفان من مكة هو ومن معه رجع سهيل بن عمرو ومن معه إلى قريش فأخبروهم بما رأوا من سرعة أصحاب النبى إلى البيعة وتشميرهم للحرب، فاشتد رعبهم وقال أهل الرأى منهم: ليس خير من أن نصالح محمداً على أن ينصرف عنا عامه هذا، ولا يخلص إلى البيت حتى يسمع من سمع بمسيره من العرب أنا قد صددناه، ويرجع قابلاً (أى فى العام القادم) فيقيم ثلاثاً وينحر هديه وينصرف ويقيم ببلدنا ولا يدخل علينا.

فأجمعت قريش على ذلك واتفقوا على الصلح والموادعة، فبعثوا سهيل بن عمرو وحويطب ومكرز وقالوا لسهيل:

إيت محمداً فصالحه وليكن فى صلحك ألا يدخل عامه هذا، فوالله لا يتحدث العرب أنه دخل علينا عنوة.

فأتى سهيل إلى رسول الله ﷺ ، فلما رآه الرسول قال: قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا وبرك سهيل على ركبتيه فكلم رسول الله ﷺ وأطال الكلام حتى وقع الصلح





على أن توضع الحرب بينهما عشر سنين، وأن يأمن الناس بعضهم بعضاً، وأن يرجع رسول الله ﷺ عامه هذا، فإذا كان العام المقبل قدم فخلوا بينه وبين مكة، فأقام فيها، وأنه من أتى من قريش محمداً بغير إذن وليه وإن كان من دين محمد رده إلى وليه وأنه من أتى قريشاً ممن اتبع محمداً لم يردوه عليه... ولكن ما الحكمة فى أن رسول الله ﷺ وافق سهيلاً على هذه الشروط وعلى ألا يأتيه رجل من قريش وإن كان على دين الإسلام إلا رده للمشركين؟

بادئ ذى بدء أقول إن المسلمين أصحاب رسول الله ﷺ كرهوا هذه الشروط وامتعضوا منها وراجعه فى ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال له رسول الله ﷺ: إنى عبد الله ورسوله ولست أعصيه ولن يضيعنى وهو ناصرى.

ونعلم أن رسول الله ﷺ يعلم من الله ما لا يعلمه أصحابه وأنه رأى فى ذلك مصلحة للإسلام والمسلمين فهناك حكمة فى قبول كل هذه الشروط التى وردت فى الصلح، من ثمرات هذا الصلح وفوائده على الإسلام والمسلمين وما حدث من فتح مكة بعد ذلك وإسلام أهلها كلهم ودخول الناس فى دين الله أفواجاً. ولقد كان من نتائج صلح الحديبية أيضاً أن اختلط أهل مكة بالمسلمين وجاءوا إلى المدينة وذهب المسلمون إلى مكة واختلطوا بهم وسمعوا منهم أحوال النبى ﷺ ومعجزاته الظاهرة وحسن سيرته، فمالت نفوسهم إلى الإيمان حتى بادر خلق منهم إلى الإسلام قبل فتح مكة فأسلموا بين صلح الحديبية وفتح مكة، وازداد الآخرون ميلاً إلى الإسلام فلما كان يوم الفتح أسلموا كلهم.

ولما قفل رسول الله ﷺ راجعًا بعد صلح الحديبية قال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: ما هذا بفتح لقد صددنا عن البيت وصُدّ هدينا، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: بئس الكلام، بل هو أعظم الفتح قد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم، ويسألوكم القضية، ويرغبون إليكم فى الأمان. ولقد رأوا منكم ما كرهوا، وأظفركم الله تعالى عليهم وردكم سالمين مأجورين، فهو أعظم الفتح. أنسيتم يوم أحد ؟؟ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد، وأنا أدعوكم فى أخراكم!! أنسيتم يوم الأحزاب؟ إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا!!

فقال المسلمون: صدق الله ورسوله، فهو أعظم الفتوح والله يا نبى الله ما فكرنا فيما فكرت فيه، ولأنت أعلم بالله وبالأمور منا.



لما قدم رسول الله ﷺ المدينة عائداً من الحديبية أتاه أبو بصير عتبة بن أسيد مسلماً قد أفلت من قومه وسار على قدميه سعياً حتى أتى رسول الله ﷺ فبعثت قريش إلى الرسول كتاباً مع العامرى ومعه مولى له، تذكره فيه بالصلح الذى بينهم وأن يرد إليهم أبا بصير، فقدما المدينة بعد أبى بصير بثلاثة أيام، وقرأ أبى ابن كعب الكتاب على رسول الله ﷺ فإذا فيه.

قد عرفت ما شارطناك عليه، وأشهدنا بينك وبيننا من رد من قدم عليك من أصحابنا، فابعث إلينا بصاحبنا.

وأمر رسول الله ﷺ أبا بصير أن يرجع معهم ودفعه إليهما فقال أبو بصير: يا رسول الله تردنى إلى المشركين يفتنونى فى دينى؟

فقال رسول الله ﷺ: يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا فى ديننا العذر - فإن الله تعالى جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجاً ومخرجاً فقال أبو بصير: يا رسول الله، تردنى إلى المشركين؟

فقال رسول الله ﷺ: انطلق يا أبا بصير فإن الله سيجعل لك فرجاً ومخرجاً.

وخرج أبو بصير فهو لا يعصى أمراً لرسول الله ﷺ.

لكن المسلمين جعلوا يسيرون إليه ويأمرون بقتل الذين معه. وانتهى به الرجلان اللذان جاءا ليأخذوه إلى قريش بذى الحليفة وبعد أن صلى الظهر كان معه زاد من تمر فجعل يأكل فيه، ودعا العامرى وصاحبه أن يأكلا معه، وقد علق العامرى سيفه فى الجدار وتحادثا ثم سل العامرى سيفه ثم هزه وقال:

لأضربن بسيفى هذا فى الأوس والخزرج يوماً إلى الليل

فقال له أبو بصير:

أصارم سيفك هذا؟

قال: نعم

فقال أبو بصير: ناولنيه أنظر إليه إن شئت

فناوله إياه، فلما قبض عليه ضربه به ضربة أودت بحياته: وخرج زميله هارباً يعدو نحو المدينة وأبو بصير يجرى وراءه يريد أن يلحق به لكنه وصل إلى الرسول ﷺ وهو جالس فى أصحابه - فلما رآه الرسول ﷺ قال: ويحك. مالك





فقال: قتل والله صاحبكم صاحبى، وأفلت منه ولم أكد وإنى لمقتول!! أغثنى يا محمد فأمّنه رسول الله ﷺ، وأقبل أبو بصير متوشحاً السيف وقال:

يا رسول الله قد وفت ذمتك وأدى الله عنك. وقد أسلمتنى بيد العدو. وقد امتنعت بدينى من أن أفتن.

فقال رسول الله ﷺ: يول أمه مسعر حرب. وهى كلمة ذم تقولها العرب فى المدح. فلما سمع ذلك أبو بصير خشى أن يرده الرسول.

فخرج ومعه خمسة كانوا قد قدموا معه مسلمين من مكة حين قدم على رسول الله ﷺ حتى قدموا شاطىء البحر. ولما بلغ سهيل بن عمرو وقتل أبو بصير للعامرى اشتد عليه ذلك وقال:

ما صالحنا محمداً على هذا

فقالت له قريش: قد برىء محمد منه. فما على محمد فى هذا؟ فأسند سهيل ظهره إلى الكعبة وقال:

والله لا أؤخر ظهرى حتى يدفع دية هذا الرجل.

فقال سفيان بن حرب:

إن هذا لهو السفه، ما على محمد دية ولا غرم. قد برىء محمد. ما كان على محمد أكثر مما صنع.

وأقام أبو بصير وأصحابه بساحل البحر. وكانوا لا تمر بهم عير لقريش إلا أخذوها وقتلوا من فيها. فأرسلت قريش إلى رسول الله ﷺ يسألونه ويتضرعون إليه أن يبعث إلى أبى بصير ومن معه وقالوا له: إن هؤلاء الركب قد فتحوا علينا باباً لا يصلح إقراره فكتب إليه رسول الله ﷺ يأمره ومن معه أن يرجعوا إلى بلادهم وأهليهم فلا يتعرضون لأحد مر بهم من قريش وقوافلها وقدم كتاب رسول الله ﷺ على أبى بصير وهو يموت فجعل يقرؤه ومات وهو فى يديه.

ما زلنا فى السنة السادسة من الهجرة وفى هذه السنة نزل فرض الحج.

وفيها أيضاً حرمت المسلمات على المشركين. وكان ذلك تخصيصاً لعموم ما تم





الاتفاق عليه فى صلح الحديبية من رد أهل مكة إن جاءوا الى النبى ﷺ حتى وإن كانوا على دينه، وفى ذلك نزل قول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴿١٠﴾﴾ (سورة الممتحنة)

وفى هذه السنة أيضاً بعث رسول الله ﷺ إلى أعاظم ملوك المشرق والمغرب مزودين بكتب تعرض عليهم اعتناق الإسلام فتلقى المنذر ملك البحرين الرسالة فأسلم كذلك فعل نائبه ملك اليمن وبعث المقوقس ملك مصر بالهدايا الثمينة إلى رسول الله ﷺ وفيها مارية القبطية التى تزوجها الرسول عليه الصلاة والسلام أما هرقل امبراطور روما والنجاشى ملك الحبشة فقد رد كل منهما الدعوة برسالة فى غاية التلطف والاحترام.

غزوة خيبر

وتقبل السنة السابعة من الهجرة وفى هذه السنة وقعت غزوة خيبر وخيبر كانت مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع تقع فى الطريق بين المدينة وبلاد الشام .. وكان مع رسول الله ﷺ فى هذه الغزوة ألف وأربعمائة رجل ومائتا فارس، وكانت معه زوجته أم سلمة ..

يقول أنس رضى الله عنه:

حين أراد رسول الله ﷺ الخروج إلى خيبر قال لأبى طلحة: التمسوا إلى غلاماً من غلمانكم يخدمنى فخرج أبو طلحة..... أنا غلام قد راهقت فكان رسول الله ﷺ إذا نزل خدمته، فسمعته كثيراً ما يقول: اللهم أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والبخل والجبن وضلع الدين وغلبة الرجال .. ولما أشرف رسول الله ﷺ على خيبر قال لأصحابه: قفوا فوقفوا ثم قال:

اللهم رب السموات السبع وما أظللن ورب الأرضين السبع وما أقللن ورب الشياطين وما أضللن ورب الرياح وما أذرين .. فإنا نسألك من خير هذه القرية وخير أهلها ونعوذ بك من شرها وشر من فيها .. اقدموا باسم الله ويمضى أنس فيقول:

سار رسول الله ﷺ إلى خيبر فانتهى إليها ليلاً .. وكان رسول الله ﷺ إذا طرق قوماً بليل لم يغر عليهم حتى يصبح فلما أصبح ركب رسول الله ﷺ وركب معه المسلمون وأنا رديف أبى طلحة ... وخرج أهل القرية فلما رأوا رسول الله ﷺ قالوا: محمد والخميس

يعنى (الجيش) ثم أدبروا هاربين .. فرفع رسول الله ﷺ يديه وقال: الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين وجاء إلى الرسول الحباب بن المنذر رضى الله عنه فقال:

يا رسول الله إنك نزلت منزلك هذا فإن كان من أمر أمرت به فلا نتكلم .. وإن كان الرأى تكلمنا.

فقال رسول الله ﷺ: هو الرأى فقال: يا رسول الله دنوت من الحصون ونزلت بين ظهر النخل والنز (النز هو ما يخرج من الأرض من الماء) مع أن أهل المنطقة لنا لى بهم معرفة وهم ليسوا بقوم أبعد مدى سهم منهم ولا أعدل رمية منهم وهم مرتفعون علينا ينالنا نبلهم ولا نأمن من بياتهم فتحول يا رسول الله إلى موقع برىء من النز.

قال رسول الله ﷺ: أشرت بالرأى ولكن نقاتلهم هذا اليوم ودعا رسول الله ﷺ محمد ابن مسلمة وقال له: انظر لنا منزلاً بعيداً من حصونهم بريئاً من الوباء نأمن فيه من بياتهم فطاف محمد بن مسلمة حتى أتى الرجيع وهو واد قرب خيبر ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله وجدت لك منزلاً فقال عليه الصلاة والسلام: على بركة الله.

صف رسول الله ﷺ أصحابه ووعظهم ونهاهم عن القتال حتى يأذن لهم، يقول جابر رضى الله عنه:

إن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يومئذ: لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله تعالى العافية فإنكم لا تدرون ما تبتلون به منهم، فإن لقيتموهم فقولوا: اللهم أنت ربنا وربهم ونواصينا ونواصيهم بيدك وإنما تقتلهم أنت. ثم الزموا الأرض جلوساً .. فإذا غشوكم فانهضوا وكبروا ..

ويقول ابن إسحق:

وفرّق رسول الله ﷺ الرايات وكانت راية رسول الله ﷺ سوداء من برد لعائشة رضى الله عنها ولواؤه أبيض دفعه إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه ودفع راية إلى الحباب ابن المنذر وراية الى سعد بن عبادة وأذن رسول الله ﷺ فى القتال وحثهم على الصبر وقاتل ﷺ يومه ذلك أشد القتال ..

وكان رسول الله ﷺ لم يتحول بعد إلى الرجيع كما أشار عليه محمد بن مسلمة:

فقال له الحباب: يا رسول الله لو تحولت؟



فقال له رسول الله ﷺ: إذا أمسينا إن شاء الله تحولنا. وجعلت نبل اليهود المحاصرين فى خيبر تخالط المسلمين وتجاوزهم.

والمسلمون يلتقطون نبلهم ثم يردونها عليهم .. فلما أمسى رسول الله ﷺ تحول إلى الرجيع وأمر الناس فتحولوا فكان رسول الله ﷺ يغدو بالمسلمين على راياتهم حتى فتح الله الحصن عليهم .. ثم توالى سقوط الحصون، وتستوقفنا فى غزوة خيبر بعض المواقف منها وصية رسول الله ﷺ لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه حين دفع إليه الراية ..

وفى ذلك جرى حوار بين رسول الله ﷺ وبين على بن أبى طالب فقد قال له الرسول ﷺ: اذهب فقاتلهم حتى يفتح الله عليك ولا تلتفت .. فسأله على: يا رسول الله علام أقاتل الناس؟ فأجاب رسول الله ﷺ بقوله: قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله .. فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله .. فخرج على بالراية وهو يهرول ومضى حتى ركزها تحت الحصن .. فنط يهودى من رأس الحصن وصاح قائلاً:

من أنت؟

فقال له على: على، فقال له اليهودى: غلبتهم والذى أنزل التوراة على موسى. فما رجع على حتى فتح الله تعالى على يديه.

وتستوقفنا أيضاً فى غزوة خيبر قصة إسلام العبد الحبشى الأسود .. يروى تلك القصة موسى بن عقبة فيقول:

إن عبداً حبشياً لرجل من أهل خيبر كان يرعى غنماً لهم. فلما رآهم قد أخذوا السلاح واستعدوا لقتال رسول الله ﷺ سألهم:

ماذا تريدون؟

قالوا: نقاتل هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى، فعمد بغنمه إلى رسول الله ﷺ وكلمه الرسول ما شاء الله أن يكلمه فقال الرجل إلى النبى: ماذا تقول؟ وماذا تدعو إليه؟

فقال رسول الله ﷺ: أدعوك إلى الإسلام وأن تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله وأن لا تعبد إلا الله فقال العبد:

وماذا يكون لى إن شهدت بذلك وآمنت بالله تعالى.

قال له رسول الله ﷺ : لك الجنة إن آمنت على ذلك فأسلم العبد وقال:





يا رسول الله إني رجل أسود اللون قبيح الوجه لا مال لى فإن قاتلت هؤلاء حتى أقتل أدخل الجنة؟

فقال له رسول الله ﷺ : نعم. فقال العبد: يا رسول الله إن هذه الغنم عندى أمانة فكيف بها؟

قال رسول الله ﷺ : أخرجها من العسكر وارمها بالحصباء فإن الله عز وجل سيؤدى عنك أمانتك ففعل الرجل وتقدم العبد الأسود إلى الصف فقاتل فأصابه سهم فقتله.. ولم يكن قد صلى لله سجدة قط.. فاحتمله المسلمون إلى عسكرهم فقال رسول الله ﷺ : أدخلوه الفسطاط.. فأدخلوه ودخل عليه رسول الله ﷺ ثم خرج فقال: لقد حسن إسلام صاحبكم... لقد دخلت عليه وإن عنده لزوجتين له من الحور العين.

روى عن أبى موسى الأشعرى قوله:

لما بلغنا مخرج النبى ﷺ ونحن باليمن خرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لى فى ثلاثة وخمسين رجلاً من قومى فركبنا سفينة فألقتنا إلى النجاشى فى الحبشة فوافقنا جعفر بن أبى طالب وأصحابه عنده فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً فكان أناس يقولون لنا: سبقناكم بالهجرة أى أنهم يقولون ذلك لأصحاب السفينة وكان من أصحاب السفينة أسماء بنت عميس وقد دخلت أسماء على حفصة زوجة رسول الله ﷺ زائرة فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟ فقالت: أسماء بنت عميس. فقال عمر: سبقناكم بالهجرة.. نحن أحق برسول الله ﷺ فغضبت أسماء وقالت: كلا والله يا عمر كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جياعكم ويعلم جاهلكم وكنا فى دار البعداء البغضاء فى الحبشة وذلك فى الله وفى رسوله وأيم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ وأسأله والله لا أكذب ولا أزيد على ذلك.

فلما جاء رسول الله ﷺ قالت: يا رسول الله إن رجالاً يفخرون علينا ويزعمون أنَّا لسنا من المهاجرين الأولين.

فقال لها رسول الله ﷺ : من يقول ذلك؟ فقالت: إن عمر يقول ذلك فلقد قال لى: سبقناكم بالهجرة ونحن أحق يرسول الله ﷺ.

فقال لها رسول الله ﷺ : ما قلت له؟ فذكرت له ما قالته لعمر فقال عليه الصلاة والسلام: ليس بأحق لى منكم له ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان





تقول أسماء بنت عميس: ولقد رأيت أبا موسى وأصحابه يأتون أرسالاً يسألون عن هذا الحديث وما من الدنيا شيء هم أفرح به ولا أعظم فى أنفسهم مما قال لهم رسول الله ﷺ لقد رأيت أبا موسى وإنه ليستعيد هذا الحديث منى

وعن جابر رضى الله عنه قال:

لما قدم رسول الله ﷺ من خيبر وقدم جعفر من الحبشة تلقاه رسول الله ﷺ فقبّل جبهته ثم قال: والله لا أدرى بأيهما أفرح بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟

بعد فتح خيبر رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة

يقول أبو موسى الأشعرى: أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير.

فقال رسول الله ﷺ : اربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنكم تدعون قريباً وهو معكم.

ويقول أبو موسى الأشعرى: وكنت خلف دابة رسول الله ﷺ وأنا أقول لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.. فقال لى: يا عبد الله. قلت: لبيك يا رسول الله فداك أبى وأمى.

قال: ألا أدلك على كلمة من كنز الجنة؟

قلت: بلى يا رسول الله فداك أبى وأمى.

قال: لا حول ولا قوة إلا بالله.

ولما نظر رسول الله ﷺ إلى جبل أحد قال: هذا جبل يحبنا ونحبه.. اللهم إنى أحرم ما بين لابتى المدينة (جانبى المدينة).

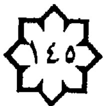
رسول الله ﷺ يؤدى العمرة:

لما دخل هلال ذى القعدة سنة سبع من الهجرة وهو الشهر الذى صد فيه المشركون رسول الله ﷺ عن البيت .. أمر الرسول ﷺ أصحابه أن يتجهزوا إلى العمرة ولا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية فلم يتخلف أحد إلا رجال استشهدوا بخيبر ورجال ماتوا فقال رجل من المدينة:

يا رسول الله والله ما لنا زاد وما لنا أحد يطعمنا..

فأمر رسول الله ﷺ المسلمين أن ينفقوا فى سبيل الله وأن يتصدقوا وألا تكف أيديهم فيهلكوا ...

فقال الرجل: يا رسول الله بما نتصدق، وأحدنا لا يجد شيئاً؟



فقال رسول الله ﷺ : بما كان ولو بشق تمرة ..

عن جابر رضى الله عنه قال:

أحرم رسول الله ﷺ من باب المسجد وسار يلبى والمسلمون معه يلبون وانتهى ﷺ إلى مر الظهران فبعثت قريش مكرز بن حفص فى نفر من قريش حتى لقوا رسول الله ﷺ وهو فى أصحابه والهدى والسلاح قد تلاحق فقالوا له: والله يا محمد ما عرفت صغيراً ولا كبيراً بالغرر تدخل بالسلاح فى الحرم على قومك وقد شرطت لهم ألا تدخل إلا بسلاح المسافر؟ السيوف فى القرب؟

فقال ﷺ : إنى لا أدخل عليهم بسلاح.

فقال مكرز: هو الذى يعرف البر والوفاء .. ثم رجع مكرز سريعاً إلى مكة بأصحابه فقال للقوم: إن محمداً لا يدخل بسلاح .. وهو على الشرط الذى شرط لكم ..

- يقول ابن عباس رضى الله عنهما:

قدم رسول الله ﷺ مكة صبيحة الرابع من ذى الحجة ..وأمر الرسول بالهدى أمامه حتى حبس بذى طوى ودخل رسول الله ﷺ على راحلته القصواء وأصحابه محدقون به وقد توشحوا السيوف يلبون:

لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك

فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى ذى طوى وقف على راحلته والمسلمون حوله ثم دخل من الثنية التى تطلعه على الحجون وكان عبدالله بن رواحة قد أخذ بزمام ناقة الرسول وهو يقول:

خلوا بنى الكفار عن سبيله
نحن ضربناكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله
قد أنزل الرحمن فى تنزيله
فى صحف تتلى على رسوله
يا رب إنى مؤمن بقيله
إنى رأيت الحق فى قبوله



فلما سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول هذا الشعر قال له : يا ابن رواحة بين يدى رسول الله ﷺ وفى حرم الله تعالى تقول الشعر؟

فقال رسول الله ﷺ :

خل عنه يا عمر فلهى أسرع فيهم من نضح النبل ثم قال رسول الله ﷺ : يا بن رواحة قل: لا إله إلا الله وحده نصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده..

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال:

قدم الرسول ﷺ وأصحابه مكة وقد وهنتهم حمى يثرب فقال المشركون:

يقدم غداً قوم وهنتهم الحمى ..ولقوا فيها شدة

فأطلع الله تعالى نبيه على ما قالوا .. فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد إذ اضطجع بردائه ..وأخرج عضده الأيمن .. ثم قال: رحم الله امرأ أراهم من نفسه قوة وأراهم ما يكرهون وأمر أصحابه أن يهرولوا ثلاثة أشواط ويمشوا بين الركنين ليرى المشركون جلدهم ثم استلم الركن وخرج يهرول وأصحابه معه حتى إذا استلم الركن اليمانى مشى حتى استلم الركن الأسود .. ثم هرول كذلك ثلاثة أشواط ومشى سائرها ولم يأمرهم الرسول أن يهرولوا الأشواط كلها للإبقاء عليهم فقال المشركون: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم إنهم ما يرضون بالمشى وينقزون نقز الظبى ولم يزل رسول الله ﷺ يستلم الركن بمحجنه والمسلمون يشتدون حوله.

ولما قضى رسول الله ﷺ طوافه فى عمرة القضاء دخل البيت .. فلم يزل فيه حتى أذن بلال بالصبح فوق ظهر الكعبة .. وكان رسول الله ﷺ قد أمره بذلك فقال عكرمة ابن أبى جهل:

لقد أكرم الله أبا الحكم حيث لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول.

عن ابن عباس رضى الله عنه قال:

طاف رسول الله ﷺ بين الصفا والمروة على راحلته، فلما كان الطواف السابع عند المروة عند فراغه وقد وقف الهدى عند المروة.

قال رسول الله ﷺ : هذا المنحر وكل فجاج مكة منحر، ثم نحر عند المروة.

ويقول محمد بن عمر: أمر رسول الله ﷺ مائتين من أصحابه حين طافوا بالبيت وسعوا أن يذهبوا إلى أصحابه ببطن يأجج فيقيمون على السلاح ويأتى الآخرون فيقضوا نسكهم ففعلوا.

بعد أن انقضت الأيام الثلاثة التى قضاها رسول الله ﷺ بمكة وفقاً للاتفاق الذى كان





قد تم بين الرسول ﷺ وبين قريش وكلت قريش حويطب بن عبد العزى بإخراج رسول الله ﷺ فأتى حويطب ومعه سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ وهو فى مجلس من الأنصار يتحدث مع سعد بن عبادة وطلب منه الخروج فغضب سعد بن عبادة وقال: والله لا يخرج منها إلا طائعاً راضياً.

فابتسم رسول الله ﷺ وقال:

يا سعد لا تؤذ قوماً زارونا فى رحالنا.. وأمر رسول الله ﷺ بالرحيل .. وخلف الرسول أبا رافع ليحمل إليه زوجته ميمونة حين يمسى فأقام أبو رافع حتى أمسى وخرج بميمونة ومن معها.

يقول البراء : لما خرج رسول الله ﷺ تبعته عمارة بنت حمزة بن عبد المطلب وكانت طفلة صغيرة بمكة وأخذت تنادى: يا عمى يا عمى فتناولها على بن أبى طالب وأخذ بيدها .

وقال لفاطمة رضى الله عنها: دونك ابنة عمك فاختصم فيها زيد وعلى و جعفر وكان زيد وصى حمزة وكان رسول الله ﷺ قد آخى بينهما فقال على: أنا أحق بها .. فهى بنت عمى وأنا أخرجتها من بين أظهر المشركين وقال جعفر: أنا أحق بها فهى بنت عمى وخالتها أسماء بنت عيس تحتى.

وقال زيد:

بل هى بنت أخى وأنا أحق بها.

فقضى فيها رسول الله ﷺ لخالتها وقال: الخالة بمنزلة الأم، فسُرَّ جعفر بذلك سروراً عظيمًا.

فتح مكة

جاءت السنة الثانية من الهجرة وفيها تم الفتح الأعظم «فتح مكة» الذى أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحرمه الأمين و استنقذ به بلده وبيته الذى جعله هدى للعالمين من أيدى الكفار والمشركين و خرج له رسول الله ﷺ بكتائب الإسلام وجنود الرحمن بعد أن نقضت قريش العهد الذى وقع بالحديبية وقدم أبو سفيان بن حرب على رسول الله ﷺ يسأله أن يجدد العهد ويزيد فى المدة وأقبل أبو سفيان حتى دخل المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة زوجة النبى ﷺ فأراد أن يجلس على فراش الرسول ﷺ فطوته دونه فقال:

يا بنية أرغبت بهذا الفراش عنى؟

فقالت له: بل هو فراش الرسول ﷺ وأنت امرؤ مشرك نجس فلم أحب أن تجلس على





فراش رسول الله ﷺ فقال أبو سفيان:

يا بنية لقد أصابك بعدى شر...

فقالت له: بل هدانى الله للإسلام وأنت يا أبت سيد قريش وكبيرها.. فكيف يسقط عنك الدخول فى الإسلام وأنت تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر؟

فقام من عندها فأتى رسول الله ﷺ وهو فى المسجد فقال:

يا محمد... إنى كنت غائباً فى صلح الحديبية فاشدد فى العهد وزدنا فى المدة، فقال رسول الله ﷺ : فلذلك جئت يا أبا سفيان؟

قال: نعم. وأعاد أبو سفيان القول على رسول الله ﷺ فلم يرد عليه ورجع أبو سفيان إلى قومه فى مكة فقالوا له: ما وراءك؟ هل جئت بكتاب من محمد أو زيادة فى المدة ما نأمن به أن يغزونا محمد؟

قال أبو سفيان: لقد كلمته فوالله ما رد علىّ شيئاً وكلمت أبا بكر فلم أجد فيه خيراً ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أدنى العدو.

وقد كلمت عليه أصحابه فما قدرت على شىء منهم إلا أن علياً لما ضاقت بى الأمور قال: أنت سيد بنى كنانة فأجر بين الناس فناديت بالجوار فقال محمد: أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة!!! ولم يزدنى.

فقال رجل من قريش: رضيت بغير رضى وجئت بما لا يغنى عنا ولا عنك شيئاً ولعمر الله ما جوارك بجائر وإن أخفارك عليهم لهين ما زاد علىٌّ من أن تلعب بك تلعباً.

قال أبو سفيان: والله ما وجدت غير ذلك.

ومكث رسول الله ﷺ بعد خروج أبى سفيان ما شاء الله أن يمكث ثم قال لعائشة رضى الله عنها: جهزينا واخْفى أمرك ثم قال: اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ولا يسمعون بنا إلا فجأة وأمر رسول الله ﷺ جماعة أن تقيم بالطرق... وكان عمر بن الخطاب يمر عليهم فيقول:

لا تدعوا أحداً يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه ولما أجمع رسول الله ﷺ السير إلى مكة كتب حاطب بن أبى بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذى أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر فى المسير إليهم وفيه يقول: إن رسول الله ﷺ قد توجه إليكم بجيش كالليل يسير كالسيل وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لنصره الله عليكم فإنه منجز له ما وعده فيكم فإن الله تعالى ناصره ووليه وأعطى حاطب الكتاب إلى امرأة كى تبلغه أهل مكة وجعل لها جُعْلاً وقال لها: اخفيه ما استطعت ولا تمرى على الطريق فإن عليه حرساً، فجعلته



المرأة فى رأسها وقفلت عليه قرونها.. وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب فبعث فى طلب المرأة حتى أتى منها بالكتاب، ودعا رسول الله ﷺ حاطباً وقال له: يا حاطب ما حملك على هذا ؟

فقال: يا رسول الله إنى مؤمن بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت ولكنى كنت امرأ ليس لى فى القوم من أهل ولا عشيرة.. وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليه..

فقال رسول الله ﷺ : إنه قد صدقكم فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لحاطب: قاتلك الله دعنى يا رسول الله أضرب عنقه فإن الرجل قد نافق فقال رسول الله ﷺ : ما يدريك يا عمر أن الله عز وجل اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال:

اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، فاغرورقت عينا عمر وقال حين سمعه يقول فى أهل بدر ما قال: الله ورسوله أعلم..

لما أراد رسول الله ﷺ السير إلى مكة أرسل إلى أهل البادية ولكن من حولهم من المسلمين يقول لهم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة وبعث رسلاً فى كل ناحية حتى قدموا على رسول الله ﷺ .

يقول محمد بن عمر: وخرج رسول الله ﷺ يوم الأربعاء بعد العصر لعشر خلون من رمضان ونادى مناديه: من أحب أن يصوم فليصم ومن أحب أن يفطر فليفطر.

وصام رسول الله ﷺ.. وخرج فى المهاجرين والأنصار وطوائف العرب..

وبلغ رسول الله ﷺ أن الناس شق عليهم الصيام فلما استوى على راحلته بعد العصر دعا بإناء من ماء فوضعه على راحلته يراه الناس فشرب فأفطر وناوله إلى رجل بجواره فشرب.. وكان عدد المسلمين نحو عشرة آلاف رجل.. وبعثت قريش أبا سفيان، وقالوا له: إن لقيت محمداً فخذ لنا منه أماناً فأتى أبو سفيان إلى مر الظهران حيث كان رسول الله ﷺ فرآهم أناس من حرس الرسول فأخذوه ومن معه إلى رسول الله ﷺ ، يقول محمد بن عمر: لما أذن الصبح أذن العسكر كلهم ففزع أبو سفيان من أذانهم فقال للعباس: ما يصنع هؤلاء؟ قال: الصلاة قال أبو سفيان: كم تصلون؟ قال: خمس صلوات فى اليوم والليلة.. قال أبو سفيان: يا أبا الفضل ما للناس أمروا فىَّ بشىء. قال العباس: لا ولكنهم قاموا للصلاة، فلما دخل رسول الله ﷺ الصلاة كبر وكبر الناس ثم ركع فركعوا ثم رفع فرفعوا ثم سجد فسجدوا فقال أبو سفيان: ما رأيت كاليوم طاعة.. يا أبا الفضل أصبح ابن أخيك والله عظيم الملك قال العباس: إنه ليس بملك ولكنها النبوة.

لما فرغ رسول الله ﷺ من الصلاة قال: يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا



الله؟ قال أبو سفيان: بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأعظم عفوك.. إنه لو كان مع الله إله فلا أغنى عنى شيئاً.. لقد استنصرت إلهى.. واستنصرت إلهك. فوالله ما لقيتك من مرة إلا نصرت علىّ فلو كان إلهى محقاً وإلهك مبطلاً لغلبتك

فقال رسول الله ﷺ: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله؟ قال أبو سفيان: بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأعظم عفوك! أما هذه فوالله إن فى النفس منها شيئاً حتى الآن فقال له العباس: ويحك أسلم قبل أن تضرب عنقك. قال أبو سفيان: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

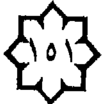
بعث رسول الله ﷺ الزبير بن العوام على المهاجرين وخيلهم وأمره أن يدخل من كداء بأعلى مكة وأن يغرز رايته بالحجون ولا يبرح حتى يأتيه وبعث خالد بن الوليد فى قبائل قضاعة وسليم وغيرهم وأمره أن يدخل من أسفل مكة وبعث سعد بن عبادة فى كتيبة الأنصار فى مقدمة رسول الله ﷺ وأمرهم أن يكفوا أيديهم ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم فقاتلت قريش خالداً: فقاتلهم فانهزموا.. وقال العباس لرسول الله ﷺ: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً فقال رسول الله ﷺ: نعم... وأمر منادياً فنادى: من دخل المسجد فهو آمن.. ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن وجعل أبو سفيان يصيح يا معشر قريش علام تقتلون أنفسكم؟ من دخل داره فهو آمن من وضع السلاح فهو آمن فجعل الناس يقتحمون الدور ويغلقون عليهم ويطرحون السلاح في الطرق حتى يأخذه المسلمون..

لما رأى رسول الله ﷺ ما أكرمه به الله تعالى من فتح مكة وضع رأسه تواضعاً لله حتى أن رأسه لتكاد تمس راحلته شكراً وخضوعاً لله تعالى أن أحل له بلده ولم يحله لأحد قبله ولا لأحد بعده ويقول أبو سعيد الخدرى:-

قال رسول الله ﷺ يوم الفتح هذا ما وعدنى ربى ثم قرأ:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ (سورة النصر)

ودخل رسول الله ﷺ البيت يوم الفتح وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً وفى يد رسول الله ﷺ قوس فجعل الرسول كلما مر بصنم منها يشير إليه ويطعن فى عينه ويقول: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً فما يشير إلى صنم إلا سقط بوجهه ثم طاف رسول الله ﷺ سبعاً على راحلته..





ويقول الحافظ ابن حجر:

اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله ﷺ فجلس لهم على الصفا فأخذ على الناس السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا فلما فرغ من بيعة الرجال... بايع النساء.

روى الإمام أحمد وأبو داود وغيرهما عن عبد الله بن عبيدة قوله: لما خرج رسول الله ﷺ من البيت اجتمع له الناس فقام رسول الله ﷺ فقال: الحمد لله الذى صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده يا معشر قريش ماذا تقولون؟... وماذا تظنون؟ قالوا: نقول خيراً ونظن خيراً نبى كريم وأخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت فقال رسول الله ﷺ فإنى أقول لكم كما قال أخى يوسف ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (سورة يوسف ٩٢) اذهبوا فأنتم الطلقاء...

فخرجوا كأنما نشروا من القبور فدخلوا فى الإسلام ثم قال رسول الله ﷺ: ألا وإن الله تعالى قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتكبرها بآبائها كلكم لآدم وآدم من تراب ثم تلا قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (سورة الحجرات) ألا إن الله تعالى حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهى حرام بحرام الله لم تحل لأحد كان قبلى ولن تحل لأحد كائن بعدى ولا يحل لامرأة أن تعطى من مال زوجها، إلا بإذن زوجها والمسلم أخو المسلم والمسلمون إخوة والمسلمون يد واحدة على من سواهم تتكافأ دماؤهم والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر ولا تسافر امرأة مسيرة ثلاث إلا مع ذى محرم ولا صلاة بعد العصر وبعد الصبح وأنهاكم عن صيام يومين يوم الأضحى ويوم الفطر، أقول قولى هذا و أستغفر الله لى ولكم.

عن ابن عباس رضى الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا

وعن يعلى بن صفوان بن أمية قال:جئت بأبى يوم الفتح فقلت: يا رسول الله بايع أبى على الهجرة فقال رسول الله ﷺ: بل أبايعه على الجهاد.. فقد انقضت الهجرة... وأعز الله الإسلام والمسلمين بفتح مكة ودخل الناس فى دين الله أفواجاً.

نسأل الله تعالى أن يعز الإسلام دائماً، ويوحد كلمة المسلمين وينصرهم على أعدائهم وأن ينفعنا بسيرة رسول الله ﷺ.

